

فتنة



0146670



Bibliotheca Alexandrina

8

نجيب محفوظ

عبد الحليم

قائمة

مطبعة خان بكنته مهر

قشتمر

نجيب محفوظ
الحائز على جائزة الدولة التقديرية
وجائزة نوبل العالمية للآداب ١٩٨٨

النشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل مكتبي - البغداد

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

العباسية في شبابها المنطوى . واحة في قلب صحراء مترامية . في شريقها تقوم السرايات كالقلاع وفي غريبها تتجاور البيوت الصغيرة مزهوة بمجدها وحدائقها الخلفية . تكتنفها من أكثر من ناحية حقول الخضر والنخيل والحناء وغابات التين الشوكي . يشملها هدوء عذب وسكينة سابعة لولا أزيز الترام الأبيض بين الحين والحين في مسيرته الدائبة ما بين مصر الجديدة والعتبة الخضراء . ويهب عليها هواء الصحراء الجاف فيستعير من الحقول أطياها مثيرا في الصدور حبها المكنون . ولكن عند الأصيل يطوف بشوارعها عازف الرباب المتسول بجلباب على اللحم ، حافيا جاحظ العينين ، يشدو بصوت أجش لا يخلو من تأثير نافذ :

أمنت لك يا دهر ورجعت خنتنسى

* * *

بدأ التعارف عام ١٩١٥ في فناء مدرسة اليراموني الأولية . دخلوها في الخامسة وغادروها في التاسعة . ولدوا عام ١٩١٠ في أشهر مختلفة ، لم يبارحوا حبيهم حتى اليوم ، وسيدفنون في قراقة باب النصر . تضخمت جماعتهم بمن انضم إليهم من الجيران ، جاوزوا العشرين عدا ، ولكن ذهب من ذهب بالانتقال من الحى أو بالموت ، وبقي خمسة لا يفترقون ولا تن أواصرهم ، هؤلاء الأربعة والراوى . التحموا بتجانس روحى صمد للأحداث والزمن ، حتى التفاوت الطبقي لم ينل منه . إنها الصداقة في كمالها وأبديتها . الخمسة واحد والواحد خمسة ، منذ الطفولة الخضراء وحتى الشيخوخة المتهاوية ، حتى الموت . اثنان منهم من العباسية الشرقية وإثنان من الغربية ، الراوى أيضا من الغربية ولكنه خارج الموضوع . وتغير المصائر وتفاوت الحظوظ ولكن تظل العباسية حيناً وقشتمر مقهانا ، وفي أركانه تسجلت أصواتنا مخلدة البسمات والدموع

وخفقات لا حصر لها من قلب مصر .

* * *

قبل أن نهتدى إلى قشتمر جمعتنا الشوارع وميدان المستشفى والنخلة الرشيفة بحقل عم إبراهيم الممتدين شارع مختار باشا من ناحية وبين الجنانين من الناحية الأخرى . تطل عليه الحدائق الخلفية لمساكن كثيرة في العباسية الغربية ، وبمدا بما نحتاج من خضر ، في جنوبه تقع غابة التين الشوكي وفي شماله ناحية الوايلية تدور الساقية التي ترويه وتنتشر حولها أشجار الحناء زافرة شذاها الطيب . في العطلات الأسبوعية والصيفية تجلس تحت النخلة المغروسة في وسطه ، تسيل أفواهنا بالحقائق والأساطير . ودل كل واحد على مسكنه لتتم المعرفة به فرأينا بيت صادق صفوان بين الجنانين ، وبيت إسماعيل قدرى سليمان بشارع حسن عيد وسراى حمادة يسرى الحلواني بميدان المستشفى وفيللا طاهر عبيد الأرملاوى بين السرايات . وأعجب صادق وإسماعيل بالسرايتين ، وتأملا حديقتيهما بانبهار ، وثمل رأساهما بالفخر وهما يعلنان صداقتيهما باثنين من أولاد الذوات . وفي أوقات السمر تنهمر المعلومات عن الدنيا والآخرة .

يقول صادق صفوان النادى :

— بابا موظف بالأوقاف ، ونينة ماهرة في كل شيء !

ونرى صفوان أفندى النادى فيجذب اهتمامنا من أول لحظة . نحيل الجسم مائل إلى القصر ولكنه ذو شارب غزيز طويل لم نر مثله من قبل . مع التقدم في العمر يصير شارب صفوان أفندى موضوعا مغريا بالتعليقات والقفش والتنكيت ويشاركنا صادق الضحك من أعماق قلبه رغم ما يكنه لوالده من حب واحترام . أما الأم تيزة زهرانة كريم فصادقتنا مرات في الشارع في تزييرتها السوداء ، ومن وراء البيشة .. تحذرنا من الترام ونحن نعبط الطريق . وتدعو لنا

بالسلامة . وصادق مؤدب مهذب ، ويصلى ، وسوف يصوم عندما يبلغ السابعة ، ولكنه لا إخوة له ولا أخوات ، بسبب مرض أصاب أمه عقب ولادته . هو وحيد الأسرة وأملها الباقى ، ونشعر كثيرا بأنه موضع الرعاية والعناية . غير أن أباه الحصيف يقول له كثيرا « يا صادق ، اجتهد ، أبوك لا يملك شيئا ليركه لك ، فاجعل الشهادة وسيلتك إلى الوظيفة » . ودب تغير عميق فى روح صادق منذ طرق عالم قريب لهم هو رأفت باشا الزين . صحبه أبوه معه إلى زيارة ابن عمه الباشا بسراياه فى بين السرايات غير بعيد من فيلا طاهر عبيد الأرملوى صديقه . يقول صادق وهو يلهث :

— سراى ابن عم بابا مثل سراياكم يا حمادة ، حديقتهما تقارب غيط عم إبراهيم فى وسعها ، جامعة لأزهار الدنيا والآخرة ، والسلامك ، والبهو الأزرق ، وبهو السفارة ، هائل .. هائل ، والباشا فى غاية العظمة ، وزيدة هانم حرمه جميلة جمالا لا قبله ولا بعده ، وفى غاية الطيبة ، يحبون أوى وأمى ، كالأنا أغنياء مثلهم ، انهم محمود أكبر منى بعامين ، أما أميرة ابنتهم فهى أجمل من زيدة هانم .. كل شىء يجنن !

بدأ حياته من صغار الأغنياء ، وبفضل ثروة زيدة هانم أنشأ أكبر مصنع للنحاس ، ورزقه الله بالطول والعرض ، ومد حباله إلى الكبراء والسادة الإنجليز ثم نال رتبة الباشوية . ويقول صادق :

— أهم شىء فى الدنيا أن تكون غنيا ..

حب الثراء غرس فى قلبه فى سراى قريه . ينعكس ذلك فى أحلامه أكثر مما ينعكس فى اجتهاده . تلميذ متوسط كغالبية شلتنا . مسحور برأفت باشا وزيدة هانم وأميرة التى تكبره بسبع سنوات . هم رموز للجنة ونعيمها . ويظل مثالا للمؤدب المؤمن ، وتقدم الأعوام لا يقلل من حياته ، ولا تجرى على لسانه حكاية

مكشوفة ، وإذا جاء ذكر لبنت من البنات لاذ بالصمت أو راح يذكرنا بعذاب القبر وحساب الآخرة . ولمناسبة وفاة جده يقول بحيرة :

— نينة قالت لى إننا كلنا سنموت ..

لا يتصور أن تموت أمه أو يموت أبوه . وليس في قوله جديد فيما يبدو ولكن شعورهم آمن بأن الموت حتم مؤجل إلى أجل غير مسمى . كلنا نسلم بالموت بألستنا أما قلوبنا فترمى به إلى موضع في الزمان قصى . وبين حين وآخر تمر بنا الجنازات في طريقها إلى القرافة فنرون إليها بغير اكتراث كأنها أحداث لا تعنينا . وتحت النخلة السامقة نلهو بشد الحبل ، والتهام أطباق الدندورمة المصنوعة من البسكوت ، وتقليد المدرسين في أطوارهم الخارقة للمألوف . ولا نكون وحدنا دائما ، فقد ينضم إلينا عشرة أو أكثر من أصدقاء الدرجة الثانية . فيهم نفر عرفوا بطول اللسان أو الخشونة أو حب العنف والأذى ، ولكنه يبقى الأساس كنواة صلبة لا يسمح لغريب باحتراقها . ويدعوننا صادق إلى وليمة غداء فيقدم لنا طعمية لذيذة وكفتة فاخرة وتشكيله من السلطات ثم طبقا من البرتقال اليافاوى . وتمطر السماء في جو بارد فتتأخر في بيته الصغير بين الجنان حتى العصر . ويرد حمادة يسرى الحلواني التحية فيدعونا للغداء في السرايا بميدان المستشفى . تستقبلنا الحديقة المترامية بروائحها الطيبة وخضرتها المغسولة المشرقة . نمضى إلى بيت صغير مستقل بذاته في الحديقة مكون من حجرتين وشرفة ومراقى . ثمة نافذة مفتوحة على الحديقة تتحرك الأغصان خارجها كالمرآح . تنتشر في الأركان على قوائم خشبية أوراق عريضة مصمغة لصيد الذباب . أما الغداء فشواء وضلمة وسلطات ومهلبية . يتساقون في الأكل كشد الحبل دون كلفة . يتريضون بعد الغداء في ممشى الحديقة . يرون « توفيق » شقيق حمادة الذى يكبره بأعوام ينطلق فوق دراجة خضراء ، ويلمحون

أفكار الشقيقة الكبرى بنت العشرين في إحدى نوافذ القلعة . زيارة سعيدة لم يلم بها شيء من الارتباك إلا حين رأينا أدوات الطعام — الملعقة والشوكة والسكين — منظومة حول الطبق . ولكن إسماعيل قدرى سليمان بدد الارتباك حين قال :
— نحن لا نستعمل إلا الملعقة واليد !

وكان مما يحمد صادق لآل الزين باشا أن الباشا والهامم يأكلان كما يأكل والداه بمجاملة ومحبة ، ولم يكن يستعمل الأدوات إلا محمود وأميرة . يقول صادق :
— ناس طيبون حقا ، كأنهم منا أو كأننا منهم ، وزبيدة هانم تحب الفسيخ وتطالب أبى بهدية منه ، ونينة تخبرها بأن لذته لا تتم إلا بتناول البصل ، فأكلت الفسيخ بالبصل ..

يروى الواقعة وكأنها معجزة في العلاقات البشرية . على ذاك فهو أجمل شلتنا . معتدل القامة ذو بشرة تميل إلى البياض ، دقيق القسمات ذو عينين سوداوين جميلتين وشعر أسود ناعم .

* * *

ونعرف الشيء الكثير عن حمادة يسرى الحلواني وأسرته . نشأة ملكية في السراي . الباشا صاحب أكبر مصنع للحلاوة الطحينية في القطر . حلاوة أرق من الهواء محشوة بالفسق ، وفي السراي مكتبة هائلة وإن لم يتسع وقته للقراءة . رجل مال وأعمال . رأياه كثيرا في سيارته الفورد ، ربة بدينا مبروم الشارب خمري اللون تشع منه العظمة كما رأينا حرمة عفيفة هانم بدر الدين ، صورتها مقبولة ولكن فخامتها تفوق جمالها .

— بابا مشغول دائما ، ماما شديدة وتحب أن تطاع ، أختى تربت في الميردى ديه واختارت لها ماما خطيبا غنيا ، وأخى توفيق يرضها باجتهاده ، أما أنا فلا تكف عن لومى ومحاسبتى وتكرر على مسمعى بأنه لا قيمة للمال بدون

العلم والمركز ..

ويسأله إسماعيل قدرى :

— ولم لا تجتهد ؟

— أحب أن أقلب صفحات الكتب فى مكتبة بابا وأتفرج على الصور .

— ألا تحب أن تكون مثل أبيك ؟

— كلا ، يأخذنا — أنا وأخى — إلى المصنع ، أخى يهتم بكل شئ وأنا

أثناء ..

فيسأله صادق صفوان :

— ماذا تريد أن تكون ؟

— لا أدرى ..

العلاقة بينه وبين أسرته متوترة باستثناء أفكار أخته التى يحبها ويقول بحسرة :

— ها هى تستعد لفراقنا ..

أبوه يطالبه بالاهتمام بمستقبله فى المصنع وأمه لا تكف عن لومه وأخوه يسخر

من كسله . وقد مارس الصلاة فترة ثم تهرب من التزاماتها .. قال :

— لا يواظب على الصلاة إلا أبى ..

ويسأله صادق :

— وماما ؟

— لا تصلى .. ولا تصوم .. ماذا عن حرم رأفت باشا ؟

فابتسم صادق وقال :

— مثل مامتك رغم طيبتها المتناهية ..

ويغيب عنا شهرا كاملا فى الصيف عندما تسافر الأسرة إلى رأس البر

للإصطياف . إنهم أصلا من دمياط والإصطياف فى رأس البر تقليد دمياطى .

ويحدثنا عن عشتهم وموج البحر ، حتى يسأله إسماعيل قدرى :

— هل حقيقى أن موج البحر يعلو كالجبال ؟

— وأكثر . والأهم من ذلك أن ترى التقاء النيل بالبحر .

إنه يفتن أخيلة صبية لا يبرحون القاهرة على طول العام ، حتى آل الأرملاوى يقضون عطلة قصيرة فى الريف .. وحماة عميق السمرة ، يبشر غموه بقامة طويلة ، رأسه كبير فيه نبل واحترام ، ملاحه مقبولة ويمتاز بنظرة هادئة . وفى نهاية المرحلة الأولية وسنه تقترب من التاسعة مرض بالتيفود . وعزل فى حجرة خاصة بالسراى . كنا نزور السراى ولا يسمح لنا بدخول حجرتة . غاب عنا شهرا ثم رجع إلينا كالخيال . وحدثنا عن مرضه طويلا ، كيف منع عنه الطعام دون أن تريده نفسه ، وكيف عضه الجوع فى فترة النقاهة وحيل بينه وبين الشبع حتى أوشك أن يفقد وعيه ، وكيف كشف له المرض عن حب الجميع له . ويقول متفلسفا :

— أصل البلوى كلها ذبابة !

وحتى فى تلك السن المبكرة تخاللت لأعيننا أهداف عن مستقبل بعيد ، إلا حمادة بدا غامضا لا نعرف له هدفا .

* * *

طاهر عبید الأرملاوى من أحب الشخصيات إلى قلوبنا لحفة روحه وبساطته وميله إلى البدانة ، وهو أسمى وملاحه شعبية ولكن جاذبيته لا تقاوم . يقول :

— أنا تعبنا لأنى وحيد والديه .

— ولكن لك شقيقتين ؟

— أنا الولد الوحيد ، بابا مصمم على أن يجعل منى طبيب مصر الأول .. وماما تصر على تعليمى الفرنسية من الآن ..

فيللا الدكتور عبيد الأرملاوى باشا غاية فى الأناقة رغم أنها دون السرايات ضخامة . والدكتور الباشا مدير للمعامل بوزارة الصحة وحاصل على الدكتوراه من النمسا ، تراه والحاجب يفتح له باب السيارة يتهدى فى جلال الميرى وأناقة الروح الأوروبية . يلوح دائما فى القمة رغم أن ثراه دون الحلوانى أو الزين ، وبيننا وبينه بعد يجعله بمعزل عنا . ولم يرحب أبدا باختلاط ابنه بأبناء العباسية الغربية ولكن طاهر صارحه بأنه لا يمكن أن يقطع ما بينه وبين أصحابه . وإنصاف هاتم القللى أم صديقنا ليست مجرد خريجة فى الميردى ديه مثل والدته حمادة ، إنها أيضا مثقفة وقارئة وذات عقل ممتاز ، وبفضلها كملت مكتبة الباشا العلمية بثمار الفكر والأدب .. واتفق رأيا الباشا والهاثم على أن يجعلنا من طاهر شخصا رفيع المقام .

وتسأله الهاتم مرة :

— ما أحب المواد الدراسية إليك ؟

فيجيب بصراحة معهودة :

— المحفوظات .. مثل :

أيها الطائر أهلا بمحبيك وسهلا

حتى فى تلك السن المبكرة بدأ يحب الشعر ويحفظه . وربما وجد شعرا فى مجلة مما يوجد فى الفيللا فيسأل مامته أن تشرحه له ثم سرعان ما يحفظه . ويسعد الباشا بذلك ويقول لخرمه :

— الولد زكى وسيكون طبيبا مدهشا ..

وعرف طاهر دينه لأول مرة فى مدرسة البرامونى . لا ذكر للدين فى فيللا الأرملاوى ، لا بخير ولا بشر ، ولا ممارسة لأى شعيرة ، ورمضان والأعياد لا تكون شهورا دينية إلا بين الخدم . ورغم حصة الدين وتدين صادق صفوان

فيمكن القول بأن طاهر نشأ نشأة وثنية أو لادينية مجردة . وتحية وهيام شقيقتاه كانتا تماثلانه في ذلك ، ولكنه يقول عنهما :
— لهما صديقات كالأقمار يزرنهما ويجلسن معهما في الحديقة ..
كالأقمار !..

ويتسلل إلى مجلسهن مسوقا برغبة مبهمه ، ويتلقى المداعبات كالورود ، وتنفجر في أعماقه مسرة بريئة وجاجة مفصحة عن انفعاله الأول بالجنس الآخر .
وفي عام من الأعوام دعيت الأسرة لقضاء أسبوعين بالإسكندرية عند خالته ، فسمعنا عن الإسكندرية كما سمعنا من قبل عن رأس البر . واستحم في الحمام الخاص بالنساء في سان استفانو مع مامته وشقيقته ودهش لمنظر الهوانم في أردية البحر التي تشبه قمصان النوم ، وقال لنا ضاحكا :
— مثل الأبقار أو أضخم !

مامته إنصاف هائم القلبي متوسطة العود ، خارجة عن تقاليد عصرها التي ترى في البدانة رمزا للجمال في عالمي النساء والرجال معا . ولكن بدلنا أن شغفه الأول بالمحفوظات التي كان يرددها تحت النخلة في غيط عم إبراهيم . وفتن أيضا بالسينا ليلة ذهبنا إليها أول مرة في عيد من الأعياد بدار عرض « المنظر الجميل » بالظاهر . الحق أنها فتنتنا جميعا ولكنه جن بها جنونا . وضاعف من أشواقه أنه لم يكن يسمح لنا بمغادرة حدود العباسية إلا في الأعياد ، غير أنه السينا احتلت موضعا هاما من حوارنا ، ولعبت بخيالنا أيما لعب ، وأصبحت قرية رعاة البقر وطننا الثاني يخفق القلب لمراها ويثور الحنين .

* * *

وأیضا فلاسماعیل قدری سلیمان حدیثه تحت النخلة . إنه أسمر قوى الجسم ذو عينين عسليتين جميلتين وأنف كبير ونظرة ذكية . بيته صغير ذو حديقة خلفية

بشارع حسن عيد ، يشبه بيت صادق صفوان بين الجنانين . أبوه قدرى أفندى سليمان موظف بالسكك الحديدية يكاد يماثل ابنه في الشبه لولا بداتته . يقول عن أبيه :

— أبى يستقل أى قطار فى القطر من غير أن يقطع تذكرة .

ويقول عن أمه ست فتحية غسل :

— أمى لا مثيل لها فى صنع الكعك والفطائر ..

له أربع أخوات سبقنه إلى الوجود ، حظهن من التعليم وقف عند حد نحو الأمية ، وحجزن فى البيت لتأهيلهن لعمل ست البيت . كن متوسطات الجمال ، بل الحق أن إسماعيل يعد أجمل منهن ، ولكنهن تزوجن قبل أن يبلغن السادسة عشرة من موظفين صغار فى السكك الحديدية أيضا ، وفى سبيل ذلك باع قدرى أفندى سليمان البيت الوحيد الذى كان يملكه فى باب الشعرية . وقال لابنه إسماعيل :

— أما أنت فمستقبلك بيدك ..

ولم يخيب إسماعيل رجاء أبيه فهو أبرزنا فى المدرسة دون منازع . يذاكر ويحفظ ويتفوق ولا يشبع من ثناء المدرسين ولا من إعجابنا به . تتفق الآراء على أنه الفارس فى هذا الميدان . وهو ذكى لماح . عشق الدين كما عشق طاهر الشعر ، يصلى مثل صادق وصام فى سن السابعة . ولا يكف عن تصور الله فى هيئة جليلة لا حدود لعظمتها . ويسأل المدرس حتى يضيق به المدرس ويأمره بالتسليم والطاعة . وإلى ذلك فتجاربه كثيرة ومسلية . يقول مباحيا :

— فى حديقتنا الصغيرة أزرع البصل ، أسقى الزرع ، أجمع العنب والجوافة ، أصطاد الضفادع وأشق بطونها لأرى ما بداخلها ..
يسأله طاهر :

— تريد أن تكون طبيبا ؟

— ربما .. لا أدري بعد ..

وبشغفه الغامض اندفع يجرب الجراحة في يد خادمة صغيرة فجرح كفها ، وغضبت أمه غضبة عنيفة وهيات له أنها ستفعل براحتة مثلما فعل بالخدمة وهو يبكى ويتوسل ، ولما رجع أبوه من عمله وعلم بالذى كان قيد قدميه وضربه بعصاه خمسا ١. ولعل ذلك كان ضمن الأسباب التى حولته عن التطلع للطب فيما بعد . ومن حكاياته المسلية ما يرويه عن زيارته لأخواته فى الأحياء الأخرى فيحكى لنا عن شبرا وروض الفرج والقبيسى والسيدة زينب . ودعى أبوه مرة لنزهة فى لونا برك بمصر الجديدة فاصطحبه معه ، فجن بها كما جن طاهر بالسينا ، هوس وهوسنا بالألعاب التى سحرته مثل القطار والقارب المتزحلق والغربال والمعدنة الحلزونية . أما مجد صباه الحقيقى فاستوى فوق سطح بيتهم الصغير . فوق السطح ترى الأرناب والدجاج وثمة حجرة للخزين ، وهو يتطوع لتقديم الماء والغذاء وتفقد المواليد وجمع البيض ، وتحت أمره إذا شاء فى حجرة الخزين السمن والمش والجبن والعسل الأسود ، بالإضافة إلى جدار السطح الذى جعل منه لوحة طويلة عريضة للرسم ، وفوق السماء بطيورها ونجومها ، وله من الوحدة أحيانا فرصة للغناء ، وفرصة أجمل لدى استقبال بنات الأقارب والجيران . منذ ذلك العهد البعيد بدأ تجاربه مع الدين والجنس . يصلى فى ناحية ، ويندمج فى لعبة العروس والبريس فى ناحية أخرى . وأمّه تطمئن إلى تدينه . فلا تشك فى عبثه . ويسأله صادق صفوان :

— ألا تخاف من الله ؟

يضحك ، يرتبك ، ولا يجيب . ذلك الصبى يتقدمنا فى كل شىء .

نجلس فوق النجيل عند أصل النخلة ، حمادة و طاهر يرتديان قميصا و بنطلونا قصيرا ، و صادق و إسماعيل في جلبابين . عنايتنا بمظهرنا كاملة ، حمادة و طاهر يمشطان شعرهما الطويل أما صادق و إسماعيل فيحلقان رأسهما مرة ٣ . و بتأثير السينما شغلنا أنفسنا بتقوية أجسامنا و ممارسة الألعاب الرياضية و مثلنا الأعلى في ذلك بطل الفيلم « الشجيع » مثل توم مكس و وليم هارت و فير بانكس . و زعم كل منا أن أباه « بطل » و اختلق له من الحكايات ما يثبت به ذلك مثل تغلبه على لص ضبطه في البيت أو قهره لبلطجي تحدى الناس في الطريق . و يحدث أن يتحرش بنا بعض الصبية في الشوارع فتصدى لهم متشجعين بخيالنا و سرعان ما تجيء النتيجة مخيبة للآمال ، فهو لاء الصبية ينطحون بالرأس أو يضربون بالقباقيب . أما المودة فيما بيننا فهي صافية لا تشوبها شائبة . في وقت انقسمنا فريقين بسبب السينما فتعصب فريق لما شئت و آخر لفانتوم ، و احتدم النقاش بيننا ، و تكدر بعض الشيء صفونا ، ولكن لم تبدر من أحدنا كلمة نابية أو إشارة متحدية . نحن مجموعة تثير الحسد في صدور من حولنا من الأقوان .

* * *

وفي عام ١٩١٨ تقدمنا لامتحان القبول في مدرسة الحسينية الابتدائية بعد أن ختمنا الدراسة الأولية وبلغنا التاسعة من العمر . وقفنا في فناء المدرسة ننتظر إعلان النتيجة آملين ألا يفرق بيننا الدهر . و نبحنا و الحمد لله . نجح إسماعيل قدرى بتفوق ، و صادق و حمادة مرانسلام ، و عبر طاهر بفضل اسم أبيه الدكتور عبيد الأرملاوى و لتقارب أعمارنا جمعنا فصل واحد هو أولى رابع الذي اختص بأصغر المتقدمين سنا . و وزعوا علينا الكتب الجديدة فحملناها — كلها — آخر النهار معنا لتنعم برؤيتها الأسر . و التحق إسماعيل بفريق الأشبال لكرة القدم ثم انقطع ياسا من الإتقان ، و قدم صادق في فريق التمثيل و سرعان ما

تركه ، أما حمادة فأراد الانضمام للكشافة ولكن الأسرة لم توافق . نلتقى في فناء المدرسة للسمر السريع ، أما خارج المدرسة فاقترضت اللقيا على يومى الخميس والجمعة ، فنذهب مساء الخميس إلى سينما المنظر الجميل ونقضى صباح الجمعة — إذا سمح الجو — عند أصل النخلة . وحافظ اجتهدنا على إيقاعه السابق ، فلم يتأثر بالتفوق إلا إسماعيل قدرى سليمان .

وذات مرة قال لنا حمادة يسرى الحلوانى :

— سمعت بابا يتحدث عن رجال ثلاثة ذهبوا إلى الإنجليز يطالبون باستقلال

مصر !

وتساءلنا عن معنى ذلك فقال حمادة :

— أى أن يخرج الإنجليز من مصر .

لعلنا لم نكن نعرف عن الإنجليز إلا أنهم جيراننا فى العباسية حيث تقوم ثكناتهم ، وكثيرا ما نرى جنودهم فى الترام . ولأول مرة تنبض أسرنا بهذا الحديث الجديد . ووقعت واقعة فى مدرستنا نفسها . فى أعقاب ما عرف عن نفى الزعماء . المدرسة تجمع أجيالا متفاوتة فى العمر من التلاميذ دخلوها فى ظل أنظمة مختلفة . نحن أصغر الأجيال سنا ولكن يوجد تلاميذ فى السنة الرابعة بشوارب ! . وذات صباح خرج من بين الصفوف تلميذ بشارب وصاح بصوت كالرعد « إضراب » . وحصلت استجابة وهياج . وأمر الناظر أولى رابع بأن تذهب فى رعاية المدرسين إلى الفصل مستأذنا الثائرين فى استثنائهم من الإضراب لحدائنة سنهم . وهدر الفناء بالخطب الحماسية ، ثم تدفق التلاميذ إلى الخارج فى مظاهرة عاصفة . أول درس عملى نتلقاه فى الوطنية . سرى إلى قلوبنا الحماس رغم الغموض والجهل بما يقع . فى بيوتنا سمعنا أصدا ما يحدث فى الخارج تتردد بحرارة . لأول مرة يلتقى الآباء والأبناء فى عاطفة متأججة واحدة . حتى

(قستمر)

الأمهات يصغين وينفعلن . أنباء المظاهرات يحملها إلى بيوتنا هواء ديسمبر البارد
ولكننا نتلقاها دافئة بل ساخنة . ومصارع الشهداء تروى كالأساطير . دوريات
الإنجليز تخترق شارعنا محمولة في اللوريات مدججة بالسلاح . الهتافات تتراعى
إلينا من الحسينية جنوبا ومن الوايلية شمالا . سعد يحيا سعد ، الاستقلال التام أو
الموت الزؤام . وتذاع الأخبار في منازلنا :
— قطعت المواصلات .

— المظاهرات في كل مكان .. الفلاحون يحاربون ..
زلزلت الأرض بغثة ولا تريد أن تسكت . تدفقت العواطف إلى قلوبنا
لتخلقنا خلقا جديدا . اجتاحت الحماس صادق وإسماعيل وحمادة ، وظاهر لم يخل
أيضا من حماس . المنشورات توزع فتؤجج النيران المشتعلة . وحدث في حيننا
حدث عظيم يوم اعتقل يسرى باشا الحلواني منضمنا بذلك إلى طليعة الأبطال .
ونظرنا إلى حمادة بإكبار . ويقول حمادة :
— بيتنا حزين ولكنه فخور ، لو حدث ذلك في ظروف عادية لماتت ماما
غما ..

واحتجاجا على هدوء ظاهر النسبي سألناه :
— ماذا عن والدك ؟
فقال ضاحكا :
— بابا موظف ، وهو من رجال السلطان ، وهو مع ذلك مع الثورة
ولكنه ..
فيسأله حمادة :
— ولكنه ماذا ؟
— له رأى خاص في سعد ! ، لا يعجبه تاريخه ..

وقطبت الوجوه استياء فقال طاهر مخاطبا صادق :
 — قريك رأفت باشا الزين من رجال السلطان أيضا ..
 فقال صادق :

— هذا الموقف يخصه وحده ولا شأن لنا به !

وغطى الحماس والقتال والضحايا على مسيرة الحياة اليومية . انحصرنا نحن في عالمنا الصغير بين البيت والمدرسة . وفي المدرسة أصبح حمادة شخصية محبوبة يشار إليها بوصفه ابنا لبطل معتقل . وفي الفصل تطوع كل مدرس لتلقينا درسا في التربية الوطنية مستهينا بأمنه وسلامته ومستقبله . وبفضل أولئك المدرسين العظام عرفنا ما أخفى عنا من تاريخنا منذ الثورة العربية ، وعرفنا سعد كمثال للقوة والنضال والذكاء والنزاهة منذ شبابه الأول . وثملنا بما سمعنا وانبثت فينا روح الوطنية التي لم تنتزع من قلوبنا حتى اليوم . وذاق البلد أول طعم للنصر بالإفراج عن الزعماء المنفيين ثم شهد أعجب يوم في تاريخه يوم عودة سعد . وأطلق سراح يسرى باشا الحلواني فيمن أطلق سراحهم ، وحيته جماهير العباسية والحسينية والوالية لدى رجوعه إلى سراياه بميدان المستشفى . وبفضل صديقنا حمادة استطعنا أن نتخيل احتفال عودة سعد الذي شاهده من موضع حجز للأسرة في فندق الكونتنتال . وشهدنا الأحداث تباعا ، فطراً الخلاف بين سعد وعدلى على وحدة الثورة ، ووجدنا طاهر في جانب وبقيتنا في جانب آخر ، كما اختلفنا سابقا حول ماشست وفانتوم ، ولكننا — بخلاف الزعماء — حافظنا على مودتنا وصادقتنا الباقية .

وعلى حين يمضى البلد من كرب إلى كرب ، وينفى سعد للمرة الثانية ، ناهزنا جميعا البلوغ في فترات متقاربة . ثورة تنفجر في أجسادنا مندرة بالشر .

— ٢٠ —

إسماعيل قدرى الوحيد الذى تعامل معها بجرأة فنقل ميدان عبثه الجنسى من سطح بيته إلى غابة التين الشوكى بغيظ عم إبراهيم ، أما صادق وحماة و طاهر فكابدوا عذاب الغريزة تحت جناح البراءة والجهل .

وصادق صفوان يعيش فى بيت ينعم بالحب والوفاق والحياة الزوجية المستقرة ، وهو — كوحيد لوالديه — يحظى بكل رعاية ، غير أن البلوغ يعتبر من الأسرار المحظور الاقتراب منها . ترك مع بلوغه وتدينه بغير مرشد أو معين ، حتى قال لنا مرة :

— لا علاج لهذا الداء إلا بالزواج ، ولكن متى الزواج ؟! وهو يجب والديه ولا يخاف منهما ، مثله فى ذلك مثل طاهر عبيد . وبدأ صفوان أفندى النادى يصطحبه معه إلى صلاة الجمعة بسيدى الكردي ، فنتظر حتى يرجع إلينا صادق فيسأله طاهر ضاحكا :

— ألا يدخل طرف شارب والدك فى عين من يجاوره عند السجود ؟ والأب لا يكف عن حث ابنه على الاجتهاد ليستقر فى وظيفة مناسبة طالما أنه لا مستقبل للفقير إلا الوظيفة . ويصارع صادق أباه بحلمه قائلا :

— أريد أن أكون غنيا مثل رأفت باشا ..

فيقول الرجل :

— الرزق بيد الله ولكن تفكيرك غير سليم .

— ألم يبدأ من مستوى قريب من مستوانا ؟!

فيقول صفوان أفندى ضجرا :

— لا تبدد طاقتك فى الأحلام الفارغة ..

ويقول له إسماعيل قدرى :

— كل إنسان يحب الثراء ولكن الحب شيء والعمل شيء آخر ..

سراى آل رأفت تعشعش فى دماغه بأناسها وجمالها ، وفتنة تواضعهم أكثر من أى شىء فى الوجود . ولا شك أن أميرة أيقظت قلبه من براءته ، رغم فارق السن ، ورغم أنها موشكة على الزواج ، بل إنها فتنت الجميع بطريقة ما .

* * *

وحادة — ابن البطل — مضى يمتد طولاً ورشاقة ، ويتجلى فيه مظهر ابن الذوات الأصيل . يتكلم بتؤدة ، ويشق كلماته من قاموس مهذب ، ولعله كان ينعزل عن العالم فى كبرياء — مثل محمود بن رأفت باشا — لولا وقوعه فى صداقتنا ، ولم يتخل عن هذا الجانب الشعبى طيلة حياته . شد ما حزن لانتقال أخته أفكار إلى بيت الزوجية . هى الصديقة الوحيدة فى بيئة معادية . أخوه توفيق موضع الخطوة ومعقد الأمل . يتبادلان عواطف فاترة . قال له مرة :
— أصحابك لا يعجبوننى ..

فقال بحدة :

— ولكنهم يعجبوننى وهذا ما يهم ..

وسعى توفيق إلى إثارة الموضوع مع والدهما بحضور حمادة فقال الباشا :
— على المرء أن يحسن اختيار أصدقائه .

فقال حمادة :

— جميع أصدقائى من الطبقة التى ينتمى إليها زعيمنا سعد !

فضحك الباشا ولم يعقب . ويقول حمادة لنا :

— بابا يريدنى على أن أكرس حياتى للمصنع ، ولا يضايقنى شىء مثل أن ينصحنى بأن أقتدى بأخى توفيق ، ولكننى مدين لمكتبته بأسعد ساعات حياتى ..

ويقول طاهر :

— ٢٢ —

— لا شك أن أباك من كبار المطلعين ..
— ربما كان كذلك على عهد الشباب ، أما اليوم فلا يحظى بالراحة إلا في
عطلة الأحد ..

— ومامتك ؟

— تقرأ الجرائد والمجلات وتستغرقها الحياة الاجتماعية ..

ويقول صادق صفوان :

— ما دام يوجد رجال مثل الحلواني والزين فالتراء ليس حلما فارغا !

ثم يسأل حمادة :

— ألا تحب أن تكون غنيا مثل أبيك ؟

فيجيبه حمادة ضاحكا :

— أحب المال طبعاً ولكنني لا أحب المصنع ..

— سيحل أخوك محل أبيك بعد عمر طويل ويصير ولى أمر الأسرة ، ماذا

تكون أنت ؟، ماذا تريد أن تكون ؟

فيفكر في شيء من الحيرة ثم يقول :

— لا أدري ، لم أحب عملاً بعد ، ولكنني أحب الحياة ..

فيقول إسماعيل :

— طاهر يحب الشعر .

فيقول حمادة بإصرار :

— الحياة أجمل من الشعر والمصنع ..

وبعد تأمل طويل لأناقته يسأله إسماعيل بلا أى مناسبة :

— ألا ينشب شجار أحيانا بين والدك ؟

يدهش حمادة ويسأله بدوره :

— ٢٣ —

- ما معنى سؤالك ؟
- أريد حقيقة أن أعرف .
- لا تخلو حياة من ذلك ..
- كيف يجرى الشجار الزوجي في طبقتكم ؟
- فابتسم حمادة قائلاً :
- تندلع الحدة .. يقطبان .. أبى يقول يا هانم لا يليق كيت وكيت فنقول
ماما يا باشا أنا لا أقبل سماع ذلك .. يا هانم .. يا باشا ..
- فيسأله إسماعيل بجرأة :
- ألم يسبها مرة قائلاً يا بنت كذا وكذا ..
- ويقهقه حمادة ثم يقول :
- هذا عندكم لا عندنا يا حضرة ..
- ويحدثنا عن حرص أبيه وتبذير أمه .
- بابا ليس بخيلاً كما يحلو لماما أن تتهمه أحياناً ولكنه يرى ألا يضيع قرش
بدون سبب معقول ، ماما ترى أن السبب المعقول هذا يجب أن يشمل ما يروق
لها من سلع شيكوريل وشملاً ومحال التحف والأطعمة والأشربة التي تقدمها في
ولائمها بالإضافة إلى هدايا المناسبات ، وقد تمددت بالطول والعرض وهي تجهز
أختى أفكار بالأثاث المستورد والحلى ، أما ليلة الدخلة فأحيتها منيرة المهدية
وصالح عبد الحى ...
- ويقهقه حمادة ثم يواصل حديثه :
- ووصف بابا ماما قائلاً يا هانم ما أنت إلا نسافة من نسافات الأسطول
البريطانى ..
- ومع ذلك فقد تبرع الباشا للوفد بعشرين ألفاً من الجنيهات ، وتقدم في الوقت

المناسب ليحل محل المنفيين فاعتقل واندرج فى سلك الأبطال . وسوف يكون نائب حينئذ الهادى الجميل فى البرلمان وتكون سراياه ركن الوفد الركين . ورغم ذلك كله فلم يساو حمادة صديقنا إسماعيل قدرى فى حماسه ووفديته ، وقلت لنفسى إن حمادة لم يرث عن أبيه مزاياه الفذة فى العمل والجهاد ، ورث البناء المتين والرأس الكبير والجبين العالى ، منظرٌ تُخلق للإدارة والسيادة ولكنه جرد من الولع بهما .

* * *

طاهر عبيد ينتمى إلى طبقة حمادة ولكنه بميله إلى البدانة ومرحه وبساطته يبدو كأنه منا تحت النخلة أسمعنا أول أشعاره ، ومضى يتعلم الفرنسية تلميذا محبا لمامته ، ويهم بين أركان مكتبة القصر الفاخرة . ويتابه القلق أحيانا فيقول :

— أنا مطارد ، الويل لى إن لم أصبح طيبيا فذا !

فتنته بصديقات شقيقته غير خافية حتى سأله إسماعيل قدرى :

— أليس للسراى سطح ؟

فأجابه ضاحكا :

— لا سطح ولا غابة تين شوكى !

ذو هيئة شعبية ومزاج شعبى رغم نشأته فى فيلا نصف أوروبية . كيف أفلت من قبضة الباشا والهاشم ؟ فى نظر الوالدين نحن نتحمل مسؤولية السقوط . وهو أكل بطبعه ، وعلمناه نحن حب الرمرمة ، فعشق لحمة الرأس والقول والفلافل والمبار والكبد والمشبك والمهريسة والكسكسى والباذنجان المخلل . بل تقدمنا جميعا فى الاقتباس من قاموس الشوارع والحوارى ورضع أشعاره الأولى بألفاظها المتحمدة . وبدأنا طريقنا الثقافى بالقصص المؤلفة والمعربة أما هو فبدأها بالشعراء الثلاثة شوقى وحافظ ومطران . ورغم النقد والترشيد فالمرحلة

الابتدائية تعتبر أسعد أوقات حياته من ناحية العلاقة مع والديه أسعدهما بتعلمه الفرنسية ويحفظ الشعر وصوغه ، واعتبر الباشا ذلك كله من آى الذكاء المدخر للطب . ويتساءل طاهر في حيرة :

— أى علاقة بين الشعر والطب ١٩

وكنا بوحى من غريزة حب البقاء نتجنب الاقتراب من فيللا الأرملاوى باشا أن تقع علينا عينا الباشا أو الهائم . والحق أن فضلا غير منكور يرجع إلينا فى تفجير موهبته الشعبية التى ازدان بها شعره بعد ذلك . بل جررناه معنا لاستقبال سعد حين عودته من منفاه الثانى . كونت شلتنا موجة صغيرة فى بحر متلاطم هدرت أمواجه فى ميدان الأوبرا . لم نشهد فى حياتنا منظرارائعا كذلك المنظر . وابتلعنا حومة الحماس وفرحة النصر وعزة الجماهير الملتحمة ، وانسربت إلى قلوبنا الفتية عواطف متأججة وتيارات فدائية ومشاعر مجنحة تطير فى الفضاء فوق هموم الحياة اليومية . رددنا الهتافات لمصر وسعد حتى بحت أصواتنا ، وثمل طاهر بالسكرة الطارئة فنسى موقف أسرته من الزعيم القادم . وعندما هلت علينا سيارة الشيخ ، عندما لمحنا من موقعنا فوق سور الأزبكية قامته المترامية ، ووقاره الجذاب ، جن جنوننا ، واشتعلت جوارحنا بنيران مقدسة ، واختزن وعينا فى سراديبه .. يوما وذكرى وصورة لم يعد فى الإمكان أن تتلاشى . واستقبلت العباسية بعد ذلك التاريخ أياما سعيدة صاخبة ، فسمعنا لأول مرة عن الانتخابات والبرلمان ، وطفنا بالسرادقات ، واستمعنا إلى الخطب والأشعار والأزجال ، ولم يكن آن الأوان بعد لنسجل أسماءنا فى الناهخين . وعن طريق طاهر عرفنا رأى الباشا أبيه فيما يجرى حولنا . فهو يرى مثلاً أنه من التهريج أن يتم اختيار الحكام بهذه الطريقة البهلوانية ، وأننا نقلد أوروبا فى النتائج متجاهلين المقدمات والأسس . بخلاف يسرى باشا الحلوانى الذى أكد لنا فى خطبته

الختامية أن صوت الشعب من صوت الله . والواقع أنه لم يكن خطيباً مفوّهاً ، ولكن الحفل كان حافلاً بالخطباء والشعراء ، على حين أضفى عليه إعتقاله هالة من العظمة والجاذبية . وقال طاهر لأبيه :

— النفى والسجن والاعتقال هى مؤهلات المعركة .

فقال الباشا بازدرء :

— الحكم علم وخبرة ومقدرة لا نفى أو سجن أو اعتقال ..

ولم تكن إنصاف هائم القللى دون زوجها فى احتقاره لما يجرى ..

* * *

لإسماعيل قدرى علينا ما يشبه القيادة . هذا حقه لتفوقه المدرسى ، وللتفوق المدرسى امتياز لا ينكر . وله منزلة خاصة عند المدرسين ، بالإضافة إلى الإثارة التى يعيها بسبب مغامراته الجنسية . وهو منذ البلوغ غدا موضع التفات خاص من أمه فضاعت من يديه فرصة السطح . وتحول بغريزته إلى غابة التين الشوكى يستدرج إليها صغار البائعات المتجولات . وثابر رغم ذلك على تدينه مثل صادق صفوان ، وأثرت خزائنه بمعلومات كثيرة استمدها من أمه عن الآخرة والحساب وعذاب القبر ، وظل على شغفه بتخيل صورة الله ، حتى قال لنا مرة :

— لعله شىء مثل سعد ولكنه يمارس سلطانه فى الكون كله !

وضحك طاهر وعلق على ذلك قائلاً :

— عرفت الآن لماذا لا يصلى أبى ..!

وهو يحظى بسعادة لما يحرز من منزلة بيتنا فيعوضه ذلك عن بساطة أسرته . إنه الوحيد بينهم الذى تخلو شجرته من أى فرع ذى امتياز . حتى صادق صفوان وهو يماثله فى المستوى يمت بصلة قرى إلى رأفت باشا الزين أما هو فلا قريب له يبل الريق . والبيت القديم الذى ورثه أبوه باعه وهو يزوج أخواته . لذلك

فعندما انجذبنا جميعا نحو الثقافة كان يستعير الكتب للقراءة الحرة من مكتبتى حمادة وطاهر . ولم يشغله شيء عن إحساسه الوطنى وحماسة الفائق للوفد الذى بلغ درجة من الحرارة لا تكون إلا للعقيدة الدينية . وهذا ما جعله يتجه نحو مدرسة الحقوق فتنة بالقانون والمجد والسياسة . لم يعد الطب ولا الهندسة مما يشبع طموحه بعد أن أصبح سعد زغلول مثله الأعلى فى الحياة . وهو الذى حرص طاهر على والديه قائلا :

— السمع والطاعة للموهبة ..

ويضايقه ولا شك هذا السؤال الذى يلحون به عليه « كيف تجمع بين العبادة ومغامرات الغابة ١٩ » .. فقال لنا يوما :

— عقب كل صلاة أستغفر الله كثيرا .. ولكن ما الحيلة مع نيران

متأججة ١٩

وفى غمرة الأحداث والحماس استعد كل منا لامتحان الشهادة الابتدائية . ونجحنا جميعا . إسماعيل فى المقدمة ونحن وراءه . والتحقنا بمدرسة فؤاد الأول الثانوية لثمضى بها خمسة أعوام ما بين ١٩٢٣ و ١٩٢٨ . ولأول مرة نرتدى البنطلون الطويل ونقلع عن شراء البديل الجاهزة . أعوام انقضت فى مراقة وسياسة وثقافة وحب . وفى عامنا الدراسى الأول هدانا الهادى إلى مقهى قشتمر . إنه أحد أفراد شلتنا الهامة التى تلاشت تدريجيا مع الزمن ويدعى الصباغ . قال لنا ذات يوم :

— جلسنا تحت النخلة لم يعد بالمكان المناسب ، عثرت لكم على مقهى

مناسب .

روعتنا لفظة المقهى الذى يعتبر عند أهلنا من المحرمات . كيف نجلس بين

رجال فى سن آبائنا وهم يدخنون النارجيلة ؟!. وقال الصباغ :

— لا تكونوا جبنا ، آباؤنا توظفوا بالشهادة التى حصلتم عليها فى الصيف الماضى ، والمقهى بعيد عن الأنظار ، يقع عند التقاء الظاهر بشارع فاروق ، صغير وجديد وجميل وذو حديقة صيفية صغيرة ، وما علينا إلا أن نختار ركنا منزويا للسمر ولعب الطاولة وشرب الشاى والقرفة والقازوزة ..

وفى سرية تامة تلمسنا طريقنا إلى الظاهر ، تسوقنا روح المغامرة ، ويعتمل فى ضمائرنا إحساس بالذنب . وطالعنا قشتمر بلونه الأخضر الزاهى ، وحجمه المحدود الذى لا يزيد عن حجم بهو سراى الزين باشا — كما قال صادق — ومراياه المثبتة فى الجدران ، وحديقته الصغيرة الموصولة به بباب صغير مفتوح ، تنطلق بأركانها نخلات أربع ، ويقوم فى الوسط عدد من الموائد فى صورة مربع متساوى الأضلاع . أشار صاحبنا إلى مائدة فى عمق المكان فى أقرب موضع إلى منصة الشغل فاتجهنا نحوها متجنبين الأنظار من شدة الحياء والارتباك . بدونا نبنا جديدا فى عمره ومنظره ، ودخل ثلاثة منا فى جلاليهم . وعلى رف وراء المنصة اصطفت التراجيل وقوارير المشروبات فضاعفت من ارتياحنا . جلسنا حول المائدة نتلقى النظرات المستطلعة بوجوه ساخنة حتى جاءنا النادل وبدأت الممارسة الجديدة . هكذا عرفنا قشتمر فى أواخر ١٩٢٣ أو أوائل ١٩٢٤ ، ودون أن ندرى أنه سينعقد بيننا وبينه زواج لا انفصام له ، وأنه سيصغى بصبر وتسامح إلى حوارنا وأساطيرنا عمرا طويلا ، بل ما زال يصغى مستوصيا بصيره وتسامحه . وفى ذلك الوقت اشتركنا ولأول مرة فى مظاهرة وطنية . لم نعد أطفالا من ناحية والمظاهرة مأمونة العواقب من ناحية أخرى فوزارة الداخلية هذه المرة بيد زعيم الأمة ورئيس الوزراء . فى أثناء طابور الصباح خرج رئيس الطلبة من الصف وصاح بصوته الجهورى « إضراب » . واندفعت الصفوف نحوه فى

عجلة ولهوجة فخطبهم مركزا على أزمة بين الزعيم والملك وأن على الشعب أن يتجمع في ميدان عابدين لتأييد الزعيم دون قيد أو شرط . وماج الميدان بالخلق من كل صنف ، كيوم الاستقبال ، ولكنه يفور هذه المرة بالغضب ، ويهتف من أعماقه « سعد أو الثورة » . تخلف طاهر الأرملاوى عن الاشتراك في المظاهرة فتركناه لرأيه . ولدى عودتنا سأل صادق صفوان :

— ولكن ما أسباب الأزمة ؟

ووضح لنا أننا لا ندرى عنها شيئا ولكن إسماعيل قدرى قال بحزم :

— نحن على أى حال مع سعد لسبب وبغير سبب وضد الملك بسبب وبغير ما

سبب ..

واتفقت قلوبنا على ذلك . ومما يذكر أننا لم نعرف أسباب الأزمة أو لم نهتم بمعرفتها إلا بعد انقضاء أعوام طويلة ونحن نسترجع الأحداث بعد أن صارت تاريخا . فى ذلك الزمان صهرنا الوفد فى أتون وطنيته فبعثنا على يديه خلقا جديدا . ويوما قال إسماعيل قدرى :

— فى مصر أربعة أديان ، الإسلام والمسيحية واليهودية والوفد .

فقال طاهر عبيد ساخرا :

— والدين الأخير أعظمها انتشارا !

علمنا الوفد ماذا نحب وماذا نكره ، وبأى قوة نحب وبأى قوة نكره ، واجتاحتنا القضية الوطنية وملكت قلوبنا ، غطت على الأسرة والمستقبل والأمل الشخصى . واندفعنا مع طوفان الحزبية بنفس القوة والعنف ونبضت كل خلية من خلايانا بالحياة والإصرار ، وعجبنا للزين باشا والأرملاوى باشا وأحزابهما ، أهم من البشر أم من شواذ الخلق والطبيعة !؟

وإلى جانب السياسة هبت علينا رياح الثقافة المنعشة البيضاء ، التهمنا المجالات

الأسبوعية والشهرية والكتب المؤلفة والمترجمة ، وتنورت رعو سنا بمصاييح مشعة مثل المنفلوطى والعقاد وطه حسين والمازنى وهيكى وسلامة موسى ، ودار الحوار حول الفكر كما يدور حول السياسة ، وشملت اليقظة العقل والقلب والإرادة .

صادق صفوان رسم بتقواه لنفسه حدودا لا يتعداها ، أحب المنفلوطى والرواد ولكنه أغلق وبعه دون ما يمس العقيدة أو يثير الشك . وإذا جاوز الحوار فى قشتم الحدود والتقاليد لاذ بالصمت واستغفر الله . ولم يضعف شىء من حلمه القديم بالثروة ولا بإعجابه الثابت برأفت باشا قريه مع استثناء الجانب السياسى . ويقول بطمأنينة :

— موقفه السياسى لا يمس مودتنا الراسخة ، ويعاتب أبى كثيرا فى رفق متسائلا إلى متى يا خالى تنخدع بذلك الرجل المهرج ؟ ، أو يقول لى وأنت يا صادق تتبع والدك بلا تفكير ، هل اشتركت حقا فى المظاهرة الوقحة بميدان عابدين ؟ ، أراهن أنك لا تعرف لها سببا ، وأرجو ألا تعتاد المظاهرات فهى اليوم آمنة ولكنها لن تكون كذلك إلى الأبد ، كم ضاعت من أرواح فداء للعجوز الأنانى .

وتضحك زبيدة هاتم من قلبها وتقول لأمى مداعبة :

— مبارك يا زهرانة ، ابنك زعيم من يومه !

مازال صادق مفتونا بالباشا وقصره وتحفه وزوجه وتواضعه ، وإعجابه بأميرة لم ينضب حتى بعد انتقالها إلى بيت زوجها .

ويقول له إسماعيل قدرى :

— لا عيب فىك إلا حلمك الغريب بالثراء ..

فيقول صادق :

- الثراء يبدأ بحلم ..
- لماذا لا تسأل قريبك عن طريق الثروة !؟
- هممت أن أفعل مرة ، وشاورت نينة فها لها تفكيرى وحذرتنى من مغبته أن يتهمنى الباشا بالحسد ..
- إنه شخصية متكاملة وتقليدية ولكنه نصب لنفسه هدفا بدا لنا غير معقول .
أما حمادة الحلوانى — كالأخرين — فقد فتح نوافذه للثقافة دون قيد أو شرط . ويصر على أن يروى لنا فى ليلته ما قرأه بالأمس . رواية المسحور المنهر المصدق دون أن يجشم نفسه عناء النقد . يقول :
- الثقافة هجمة ضاربة ، أتاحت لنا لتوقفنا من سبات ..
- فإذا كانت آخر قراءة عن الدين لخصها بنبرته المترفعة ، ثم يقول بيقين :
- هذا هو القول الفصل فى الدين !
- وتدور المناقشة بين أطراف متناقضة . ولم يكن حمادة فى الأصل صاحب عقيدة راسخة فلم يكابد أزمة حقيقية . ونسمعه تارة أخرى وهو يقول :
- هذه هى قصة الإنسان وهذا هو أصله ..
- ثم حدث أن قرأ كتابا معتدلا عن الدين والعلم فإذا به يقول :
- يبدو أنه لا يوجد تناقض بين الدين والعلم !
- إنه عميق التأثير بما يعرف ، وسرعان ما ينتقل من حال إلى حال . يمتنع عن أى تعريف أو وصف . ليلة مع الليبرالية وأخرى مع الاشتراكية . وقد سأله صادق :
- ولكن من أنت ؟
- فأجاب بحيرة :
- أمامى طريق طويل ..

طاهر عبيد يبدو ذا هدف واضح وموقف واضح . لا يشك أحد منا في شاعريته . إنه يحفظ الشعر ويتذوقه وبدأ يدعه . ويحب الزجل أيضا . أسمعنا أول ما أسمعنا غزلا في صديقات شقيقته ، وألف زجلا فكاهيا عن شارب صفوان أفندى النادى والد صادق . ونهل من كتابات الرواد فلم يقتصر اطلاعه على الشعراء الثلاثة أو مختارات أبى تمام والبحترى . وقال لنا :
— عما قريب سأقرأ بالفرنسية ..

ولم تضيف الثقافة الحديثة جديدا إلى عقيدته ، فقد نشأ بلا دين تقريبا ، لم يثر الدين اهتمامه ولا شغل تفكيره ، ولكنه هام بالشعب والجمال والأغاني ، وكان ضميره عامرا بالقيم الرفيعة ، وإن تكن نشأته في فيلا الأرملاوى قد أقصته عن المجال السحرى لسعد زغول فإنها لم تربطه بالولاء للملك ، ثم جاءت المعارك الحزبية فشحتته بالقرف والكفر بالجميع . وكان يقول :

— مصر جديرة بالحب ولكنها لم تجد بعد من يحبها لذاتها ..
إسماعيل قدرى لا يقرأ بغزارة حمادة ، ولكنه يفكر فيما يقرأ ويناقشه .
وقد عبر عن موقفه عندما قال :

— الثقافة الحديثة تحتشد للهجوم على حصن الدين والتراث ..
وزاد قوله تفسيرا فقال :

— إنها تبدأ بالخرافات فتبدها ثم تتصدى للمسائل الكبرى ..
فسأله صادق صفوان بقلق :

— هل أخذ الشك يوسوس في صدرك أنت أيضا ؟
فتملاه بنظرة طويلة ثم قال :

— ليس للفكر حدود ..

فقال طاهر عبيد ضاحكا :

— ٣٣ —

— دعنى أهنتك !

فقال مقطبا :

— الدين موضوع ، والله موضوع آخر ..

فضرب صادق كفاً على كف وقال :

— اسمعوا العجب ..

يبدو أنه يفكر ويشك ، ولم يسلم من شكه إلا الوفد ، ومال فى اطلاعه إلى المعرفة أكثر من الفن والأدب . ومن ناحية المستقبل ركز على القانون باعتباره الباب المفضى إلى المجد والسياسة . ونحن نؤمن به ونثق فى قدراته وفى بلوغه هدفه فى النهاية . وعلى حين تستوى الثقافة كغاية فى حياة حمادة الحلوانى ، فهى تلعب فى حياة إسماعيل دور الدعائم التى يقيم فوقها بناءه الشاخ . إنه رجل عمل لا قلم ، وأحلامه مقدمات لأفعال ، وهو يتقدم بخطوات راسخة رغم فقره وانعدام زاده من ذوى الجاه والنفوذ .

* * *

ومع الثقافة اشتعلت نيران الجنس . أقسى من الشك وأعند إلحاحا . تطاردنا ليل نهار . وزاغت الأبصار متطلعة إلى مجالات الجنس اللطيف . كلما لاح فى نافذة أو خطر فى طريق . تسترق النظر إلى الوجوه والسيقان وتكوين الأجسام التى تنبض به الملابس الفضفاضة . أصبح إسماعيل موضع حسد ولكنه لم يكن دون الآخرين معاناة .

و ذات يوم جاءنا الصاغ بكتاب متسائلا :

— هل سمعتم عن هذا الكتاب ؟

غلافه من الخارج يدل على أنه كتاب تاريخ ، وقد غطى به لإخفاء عنوانه الحقيقى وهو رجوع الشيخ . ونصحنا بقراءته سرا . تبادلناه واحدا بعد الآخر .

(قشتم)

— ٣٤ —

مررنا بسرعة على أبوابه لنقع في قبضة حكاياته . أجبجت نيراننا وأمدتها بوقود من العفاريت . ولما تأكد الصباغ من ضياع العقول شرع يحدث عن حى البغاء ، وسأله صادق ذاهلا :

— والحكومة تعلم ؟

فأجاب بنبرة خبير :

— الحكومة تعطى الرخص وتحفظ الأمن بالمكان ..

ويوم الخميس عدلنا عن سينما المنظر الجميل إلى كلوت بك . تقدم وسرنا خلفه ونحن من الدهشة في غاية ومن الخوف في نهاية . هذه البيوت القديمة مرصعة مداخلها بالنساء من كل شكل ولون ، وهمس حمادة :

— ما أشد الزحام ..

فقال صادق :

— لنرجع بسرعة قبل أن نفتضح !

وقال الصباغ ساخرا :

— هل يتوقع أحدكم أن يقابل أباه هنا ؟ .. كل زبون هنا في حاله ، تقدموا ولا

تكونوا جنباء .. اختاروا وبسرعة ..

ووجدنا أن الاختفاء في بيت أخف من البقاء وسط الجمهور . والتقينا عند رأس الطريق ونحن نتبادل نظرات باهتة ولزنا الصمت حتى جمعتنا مائدتنا في قشتمر . ونفذ صبر كل واحد في معرفة ما وقع للآخرين . وكان صادق أول المعترفين فقال :

— الأولى والأخيرة ..

— لماذا ؟

— من ناحية الجمال لا بأس بها ، الحجرة على البلاط ، فراش ومرآة وكنبة

قديمة ، أشارت إلى طبق ساج فوق الكنبه وطلبت بقله ذوق أن أضع النقود ، وضعت النقود ، وبسرعة نزعنت الفستان الأحمر عن جسم عار ، استلقت مشيرة بيدها إشارة تدل على السرعة ، أنا بردت وكأني ما عرفت الشهوة ، قلت بأدب : أشكرك أنا ذاهب . فجلست وهي تقول : مع السلامة ... أعوذ بالله .. هي الأولى والأخيرة ..

رؤحنا عن أنفسنا بالضحك فتشجع طاهر وقال :

— وجدت فلاحه على ذقنها وشم باسمة الثغر ، اتجهت نحوها فسبقتنى إلى السلم ، لم أهتم بالحجرة ، قالت لى : أنت مثل البغل رغم صغر سنك ، وضحككت فضحككت ولكنى تضايقت ، وبردت كما برد صادق . وشعرت بغربة شديدة . وسرعان ما تغير رأبى فقلت لها : لا مؤاخذه أنا غير مستعد هذه المرة . فقالت : أنت حر ولكن لا بد من الدفع ، فدفعت القروش وأسرعْتُ نحو الباب وهي تقول لى : لك قفا يغرى بالصفع . فزدت من سرعتى كالهارب ..

وضحكنا طويلا ، وقال صادق :

— الأولى والأخيرة أيضا ؟

ولكنه لم يجب ، وقال حمادة الحلواني :

— تجربة موفقة من حسن الحظ ، أعجبتنى عيناها ، وكانت مؤدبة ومشجعة ، تركتنى أحضنها ونحن واقفان ، وتم كل شيء بسرعة .. لا بأس ! واتجهت الأبصار نحو إسماعيل قدرى ونحن نتوقع أفضل النتائج بوصفه صاحب الخبرة الوحيد فينا . وضحك أكثر من عادته وقال :

— فتانى صغيرة السن والجسم مقبولة ، ولما ضمتنا الحجرة معاً دخلت امرأة بين الأربعين والخمسين ، ضخمة الجسم قوية الشخصية ، فهرعت إليها الفتاة بأدب ودار بينهما تهامس عن العمل غالبا ثم غادرت الحجرة . وأصارحكم بأنى

رغبت في المرأة التي لم يفسدها الكبر بعد . وبجراحة قلت للفتاة : إنني أريد المرأة . فدهشت وقالت : إنها المعلمة وليست لذلك . فطلبت منها أن تبلغها رغبتى ، فترددت قليلا ثم ذهبت . وما لبثت المرأة أن دخلت وأغلقت الباب وهى تقول بصوت غليظ : ادفع الضعف . فقلت لها : إننى لا أملك إلا عشرة قروش . فلم ترفض وضممتها إلى ذراعى لا تحيطان بها من جسامتها ، وكنت فى غاية الانبساط ..

فهتف طاهر عبيد :

— أنت إنسان غير طبيعى ..

وانقطع عنا الصباغ بسبب ما ، ولكننا لم نقطع عن كلوت بك . صادق صفوان الوحيد الذى لم يكرر التجربة بعد أن أثار الحى كله اشمئزازه ولم يتفق مع تدينه وذوقه . طاهر لم يتخلف ولكنه كان فى الغالب يجلس فى مقهى بلدى يسمع العربى ويتأمل الخلق . وعن له رأى فى الموضع فقال :

— هذا معرض للنساء والرجال فى غاية الشذوذ والسوء ، فعلى مريده أن يفقد وعيه أولا قبل أن يقدم عليه ..

ومع السياسة والثقافة والجنس أشرق علينا الحب بنوره . وأول من ثمل بخمره المطهرة كان صادق صفوان ، يوم رأى إحسان بصحبة أمها ست فاطمة يغادران مسكنهما بشارع أبو خودة . صاحبنا كان فى السادسة عشرة وإحسان بنت ثلاثة عشر . كلما مررنا قريبا من المسكن فى طريقنا إلى قشتمر ارتفعت عيناه بين خدين مخرجين إلى النافذة بالدور الثانى . وإحسان أنضج من سنّها بكثير ، ممثلة الجسم فى رشاقة ، ووجهها مستدير مائل للبياض ، وشعرها كستنائى غزير ، وعيناها عسليتان صافيتان ، وثغرها غاية فى الدقة ، يوصف عادة بأنه خاتم

— ٣٧ —

سليمان . ووضح للجميع أن البنت معجبة به ، أو على الأقل معجبة بإعجابه بها .
وقال لنا صادق بنشوة :

— البنت مثل التفاحة ..

وكلها حيوية ، وعرفنا أن أباهما يدعى إبراهيم الوالى ، موظف صغير كثير
العيال . وسأله طاهر عبيد :

— هل عرفت الآن ما هو الحب ؟

فقال صادق فى غير قليل من الارتباك :

— أنا منبهرجختها ، وتدورنى الأرض عندما تلقى على نظرة ، وكلما تذكرتها
شعرتُ بسعادة عجيبة ..

فقال طاهر عبيد :

— شعرت بمثل ذلك نحو مارى بكفورد ، وبشئ شبيه به نحو صديقات
شقيقتى فى زمن معنى ..

فقال صادق :

— إنك لم تحب بعد ..

وقال إسماعيل قدرى :

— أنا أسيطر على نفسى بفضل غابة التين الشوكى وكلوت بك وانهماكى فى
العمل . لى جارة بنت الجيران ولكن لا صبر لى على إهمال عملى والوقوف فى
النافذة .

والتفت حمادة الحلوانى نحو صادق قائلاً :

— ها أنت تحب ، فما الخطوة التالية ؟!

فقال ضاحكاً :

— صبركم ، أنا لم أفق بعد ..

وطاهر عبيد أثارنا بشعره قبل أن يثيرنا بحبه . فاجأنا بنشر أول قصيدة غزلية له في مجلة الفكر . ظهرت القصيدة تحت عنوان « الجميلات في الحديقة » ، في مجلة عريقة منتشرة ومعروفة بالدعوة لروح العصر والتقدمية . إنه تقدير بكل معنى الكلمة . واهتز ركن قشتمر سرورا وطربا ، وقال حمادة :

— نحن نشهد ميلاد شاعر ..

وسأله صادق باهتمام :

— هل علم بالنشر والذاك ١٩ ؟

فضحك طاهر وقال :

— الإعجاب بموهبتي في نطاق القليلة يسعدهما ويعتبرانه تمهيدا لموهبتي المدخرة للطب اللعين ، ولكن بابا وجم حينما اطلع على القصيدة في باب الشعر بمجلة الفكر وقال بامتعاض شديد : هذا شغل أدبائية ولا يليق بمقامك ، فقلت له : ولكن شوقي بك شاعريا بابا ، فقال : إن شوقي أمير من البيت المالك أولا وأخيرا ، أما الشعر في ذاته فحرفة الشحاذين ...

على أى حال لم يفسد عليه ذلك سعادته بنشر قصيدته ، ونصححه إسماعيل قدرى بزيارة المجلة للشكر والتعارف وتوثيق العلاقة ففعل . وهناك اكتسب علاقات زمالة جديدة ، وعرف المبادئ التقدمية من خلال نخبة من المؤمنين بها ، وتعاطف مع الإرادة الطامحة لهم العالم القديم كله وإقامة بناء جديد موضعه على أسس علمية معاصرة . وكأنما ودَّ أن تبيد مع العالم القديم أفكار أبيه الكنيية ، ولكن التعاطف لم يتجاوز به حدود الصداقة للمبدأ ومعتقيه دون الالتزام بمبادئه أو الاندماج في سلوكياته . وفي ذلك الوقت خرج من شرقة الهيام الغامض إلى حومة تجربة حقيقية . رآه صادق يوما ينتظر أمام صيدلية العباسية ليرى رثيفة حمزة وهي تغادرها . بنت سمراء رشيقة الملامح فائرة الجسم نائرة النهدين

خفيفة الحركة ، وتُماثل طاهر في سنه على الأقل . لا يجهلها أحد من أهل العباسية تقريبا ، فهي تقيم مع أمها في شقة بعمارة متوسطة العمر تطل على العباسية من ناحية وعلى القرافة من ناحية أخرى . وهي ممرضة تمارس مهنة إعطاء الحقن للمرضى عن طريق الصيدلية ويُقال إنها تعمل أيضا في مستشفى . سيدة السمعة دون أى دليل ولكن هكذا يجرى الحال في العباسية . فما دامت تعمل وتنتقل من بيت إلى بيت بخفة ووجه مليح وفستان ناطق فهي سيئة السمعة دون شك . طاهر يعترضها بجسمه المائل للبدانة ونظراته الحاملة ، ومن ذا الذى لا يعرف طاهر بن عبيد الأرملاوى باشا ؟ . إنه ينظر ويتسمم وهي تعرض عنه دون غضب . وتستمر المطاردة ويلوح الأمل . هكذا يصبح في مجلسنا عاشقان ، وتتجلى في أحوالهما أعراض السحر والنشوة . وقال له حمادة الحلوانى :

— رقيقة تحتاج إلى مكان آمن .. أعنى شقة خاصة مثلا !

فقال إسماعيل قدرى صاحب الخبرة :

— هي أدرى بما تحتاج إليه ، ولكن يلزمك مصروف إضافي ..

فقال طاهر باستياء :

— كأنكما تحدثان عن مومس !

فلاذا بالصمت في دهشة ، وقال صادق صفوان معتذرا عنهما :

— لا تؤاخذهما فأنت تعرف ما يقال ..

فقال طاهر بوضوح :

— كلام فارغ ، أنا أحب رقيقة كما تحب أنت إحسان ..

وألزم قوله كل أحد حده رغم وساوسة الباطنة ، ورجع يقول :

— أقبلت عليها بادی الأمر بنية سيئة ، تبعتها من بيت إلى بيت دون جدوى ،

وتبين لى أنها فتاة عاملة ؛ فهي إما تمارس عملا أو ترجع إلى بيتها ، الناس ألسنتهم

— ٤٠ —

لا ترحم ، وتقذف بالتهم بلا دليل ، والحق أنها لما ابتسمت لى غزافى شعور جديد فأدركت أننى أحبها ..

وتم التعارف وتواعدا للقاء فى حديقة بيرس ، وقالت له :
— الحرص واجب ، وأنا أخدم الأسر الكريمة ، وألسنة الناس رديئة ..
ربما تصور بعضنا أنها فتاة مأكرة وأنه شاعر طيب وابن ناس لا خبرة له بمكر
الحوارى . وتحدانا طاهر قائلا :
— هاتوا لى دليلا واحدا ..

حقا لم يضبطها أحدنا مع شخص فى شارع خال ولا سمع عنها واقعة محددة ،
وتمنينا لصديقنا السلامة . وتبادلا هدايا رمزية وقال لنا وهو ثمل بنشوته :
— إنى ماض معها إلى النهاية المشروعة !

ثم بعد صمت :
— وهى تعرف أسرتى وتقدر ظروفى ولكنها سألتنى فى شىء من الحذر :
هل تستطيع أن تقف أمام إرادتهم ؟ فأكدتْ لها أننى أستطيع كل شىء ..
ويحق لنا أن نذهل لهذا التحول الكبير . وقال له حمادة الحلوانى :
— إنك ما زلت فى السادسة عشرة ..
فقال ببساطة :

— للزواج وقته المناسب ..
فقال صادق :
— الوقت المناسب بالنسبة لها مختلف ..
فقال ضاحكا :

— الحب لا يعترف بذلك ..
وسأله إسماعيل قدرى :

— ٤١ —

- هل تفهمك كشاعر ؟
- على الأقل لا تسىء فهمى ، ويعجبني فيها بصفة خاصة قوة شخصيتها .
- فقال حمادة :
- قد تفصل من شجرة الأسرة بسببها ؟
- لا يهمنى ذلك .
- وسأله صادق مداعبا :
- هل عرفت الآن الحب ؟
- فقال ضاحكا :
- لعله جنون أو مرض ، ولكنه على أى حال يمثل السعادة فى ذروتها ..
- ومارى بكفور ؟ .. وزائرات الحديقة ؟
- فقهقه قائلا :
- هذه فاتحات شهية ..
- فتساءل إسماعيل قدرى باهتمام :
- هل يختلف عن الجنس ؟
- إنه شجرة ملائكية نواتها الجنس ..
- وهنا اعترف لنا صادق قائلا :
- لقد سألت والدتى أن تقرأ الفاتحة مع ست فاطمة أم إحسان ، وتفكر
- والدى طويلا ولكنه لم يعترض ..
- ووقع حمادة الحلوانى فى شرك الحب وهو يناقش المحبين . علمنا أنه شغف
- بسميرة المعروق ، وقال لنا :
- فيها جميع المواصفات المطلوبة ..
- وسميرة بنت ستة عشر أيضا ، من الطبقة الوسطى ، وعرف عنها أنها تزور

الجيران سافرة الوجه وحدها فاعتُبرت متفرجة . وكانت تفعل ذلك بموافقة الوالدين ورغم اعتراض ابن عم لها غيراً على سمعة الأسرة . وطبعاً حمادة معروف كنجل يسرى باشا الحلواني الثرى الكبير والبطل الوطنى . وعن طريق خادمتها دعاها إلى لقاء فى شارع السرايات الذى يخلو مساء للعشاق .

من بدء الحكاية شعرنا بأن حمادة يخوض مغامرة فريدة ولكنها لم تتمتعن بالحب الحقيقى الذى اقتحم قلبى صادق و طاهر . على أى حال تلاقياً فى شارع الحب ولكن التجربة أجهضت قبل أن تبدأ . ما كادا يسيران دقائق معدودة حتى انقض عليهما ابن عم الفتاة كالوحش الكاسر . لطم الفتاة على خدها ففقدت توازنها وتهاوت فوق الطوار ، ثم انهال على صاحبتنا باللكمات حتى أدركهما شرطى الدرك . وذاعت الفضيحة من فم إلى فم ككرة القدم ، وغضب يسرى باشا غضباً شديداً وقال لابنه :

— يعتدى عليك وأف مكنوف اليدى لأننا نحن المعتدون ، ألا تدرى كيف تكون المعاملة مع بنات الناس ؟ ومن هو المعروق هذا ؟ .. يا لك من طفل مخيب للآمال ..

ونال صاحبتنا من المعركة كدمات فى الخد والشفة فاضطر إلى الاعتكاف أياماً فى السراى ، ولما رجع إلينا لم نتمالك أنفسنا من الضحك . وسأله طاهر باهتمام :

— ماذا أنت فاعل ؟

فأجاب ببرود :

— لا شىء ..

— ألا تحبها ؟

فقال ضاحكاً :

— تلاشى كل شىء فى المعركة ..

— ٤٣ —

- ألم تتبادلا أى كلام ؟
- مجرد التعارف والإعجاب ثم كان ما كان ..
- لعلها تنتظر خطوة جديدة من ناحيتك ؟
- لن يحدث أى جديد ..
- فقال صادق :
- المسألة أنك لم تحب ..
- فهز منكبيه قائلاً :
- ربما ..
- ولم يغير إسماعيل قدرى من سيرته ، ويقول ببساطة :
- الجنس شىء عظيم ومفهوم وهو مكتفٍ بذاته ..
- فيقول طاهر :
- رأى عجيب لإنسان له ثقافتك وعقلك ..
- فيقول بترو :
- الجنس يضعك فى صميم الوجود ولا وزن عندى لما يقول المنفلوطى ..
- لعله شغل عن الحب أو لم يخلق له .

* * *

وفى غمرة الهموم الخاصة الممتعة خفق فؤاد الوطن خفقة أليمة عميقة بموت
الزعيم سعد زغلول . شدَّ ما ذهلنا واشتعلت جوانحنا بنار الحزن والحسرات .
حتى طاهر عبيد وجم وأسف بعد أن أظلت زعامة الراحل الجميع فى الائتلاف
الوطنى وأحبه الخصوم مع المريدين والأتباع . وكل منا له حكاية عن الخبر فى
أسرته وما أسال من دموع . كل عين بكّت سعد وكل قلب امتلأ بالشجن .
وسأل صادق طاهر عبيد :

— كيف تلقى عبيد باشا وإنصاف هانم الخير ؟
فأجاب :

— بالحزن طبعاً ، وقال أبنى إنه فى أعوامه الأخيرة كُفِّرَ عن ماضيه كله وأصبح
أباً للشعب والوطنية ..

وذهبت جماعتنا إلى ميدان الأوبرا وانحشرنّا فى الجموع الحزينة الواجمة ننتظر ،
وعندما لاح النعش فوق المدفع ارتفعت صرخات الأسى إلى سماء أغسطس
الصفافية التى تقطر حرارة ورطوبة . وجرفنا التيار وراء الجنازة إلى شارع محمد
على ، وهناك اختلطت الهتافات بصوات المطلات من النوافذ والشرفات .
ورجعنا إلى العباسية صامتين بلا سنعِد . ونغوض أمواجاً جديدة من تاريخنا المقعم
بالحرارة والقلق ، فنباع خليفة سعد ونرقب ما يلوح فى السماء من نُدُر وبشائر .
وفى عام البكالوريا ضاعفنا الهمة تطلعاً للنجاح . واجتهد إسماعيل قدرى
مستهدفاً التفوق ليلتحق بالحقوق بالبحان ، ولكن سوء الحظ اعترض سبيله
المرسوم بتدبير ماکر . ففى ختام الثلث الأول من العام الدراسى لزم قدرى أفندى
سليمان الفراش لمرض فى القلب . اختل نظام إسماعيل وشغل بأبيه ، وازدادت
متاعب الأسرة بتكاليف الطبيب والأدوية . وحدثنا إسماعيل عن مرض أبيه بتأثر
شديد ، عن هزاله ، وورم ساقيه ، وضعف الأمل فى شفائه . والحق أن قدرى
أفندى لم يسترد صحته ، وأسلم الروح فى أواخر مارس قبل الامتحان بشهر
تقريباً . وأساء مرضه وموته صديقنا إساءة لا تحير . نجح فى البكالوريا وجاء ترتيبه
دون المتوقع ودون ما يستحق ، وعجز معاش والده عن توفير المصروفات له ،
وبالكاد وفى احتياجات الأسرة الضرورية . وسُئِلَ عما ينوى فعله فأجاب
بأسى :

— لا توجد فرصة للمجانية إلا فى كلية الآداب ..

— ٤٥ —

وشعرنا جميعا بأن همة عالية قد أهدرت عبثا . وقال له صادق مواسيا :
— لا تحزن ، ففى أى مجال فرصة للتفوق ..
فقال مستسلما :

— يا لها من ضربة قاضية ..
أما بقية الأصدقاء فقد التحق طاهر بكلية الطب بسعى أبيه وإصراره . وقال
الباشا لابنه :

— نجاحك وحده ودون سعى لا يؤهلك لكلية الطب ، ولكنك قادر على
التفوق إذا عازمت ..
فقال له طاهر :

— ولكننى شاعر يا بابا ..
فقال الباشا بحدة :
— حتى مع التسليم بأنك معتل بهذه العاهة فلا يمنع ذلك من دراسة الطب ،
أعرف أطباء مهووسين مثلك ولكنهم أطباء على أى حال ..
وسأله حمادة الحلوانى :
— ترى كيف تدرس الطب على رغمتك ؟
فأجاب ضاحكا :

— دعنا من الطب وسيرته ، المهم أن مجلة الفكر ترحب بأشعارى ورئيس
تحريرها يحننى دائما على الإبداع ، والمعركة الفاصلة مع أبى آتية لا ريب فيها ..
ودخل حمادة الحلوانى كلية الحقوق بلا أدنى رغبة فيها ولا فى غيرها . قال :
— لأسكت أبى ليس إلا ، كف الآن عن إغرائى بالاهتمام بعمله وقنع بأخى
توفيق كخليفة له ، وقد دخلت الحقوق لأوهمه بأننى صاحب هدف هام أيضا ..
قال له صادق :

— ٤٦ —

— بوسعك أن تعمل في النيابة والقضاء ..

فقال ضاحكا :

— هدفي أكبر من ذلك ، أنا عاشق الثقافة والحياة والحرية ..

— الحرية ؟!

— سمها مؤقتا البطالة إذا شئت ..

مع الزمن مضى حلمه يتبلور ويتجسد ، أن يعيش كالأعيان ، يقطف من كل
بستان زهرة ، بالطول والعرض ، بالروح والجسد ، دون التزام أو ارتباط .

وقال إسماعيل قدرى :

— إنه قادر على تحقيق حلمه ..

أما المفاجأة المثيرة حقاً فاقترحتنا من ناحية صادق صفوان . قال ووجهه

الجميل يومض بالانشرار :

— معى قبلة !

وانتظر ليخلق الجو المناسب ثم قال :

— سأفتح دكان خردوات !

هل جُن الشاب الوديع المتدين ؟ . ولكنها الحقيقة . صارح والديه بأنه قرر ألا
يكمل تعليمه ، وأن يفتح دكان خردوات كخطوة أولى في سبيل الثراء . انزعج
صفوان أفندى النادى أيما انزعاج ولم يصدق ، وآمنت ست زهرانة كريم بأن عينا
أصابت ابنها الوحيد . قال صفوان أفندى :

— أنت تمزح ولا شك ..

— بل جادٌ كل الجد .

— إذن مسك جنون !

— لِمَ يا بابا ؟ . أنا عاقل وأعرف هدفي ..

— ٤٧ —

— لم أسمع عن متعلم قبلك يفضل أن يكون صاحب دكان عن أن يكون موظفا في الحكومة ..

— قارن بين أقل ربح متصور لدكان وبين أى مرتب .

— المال ليس كل شيء .. الجزار رجل غنى !

— المال أهم شيء .

— والكرامة ؟

— العمل الشريف كرامة .

فصاح الرجل :

— أفسدك التدليل ، هذه هى المسألة ، ومن أين لك الخبرة بهذا العمل ؟

فقال بهدوء وأدب ليلطف من انفعاله :

— لنا أصحاب من كل لون ، منهم أبناء بقالين وأبناء خردواتية !

فسأله بحق :

— لا يكفى هذا ، ومن أين لك المال الذى تبدأ به ؟

— توجد دكان بثلاثة جنيهات فى العمارة الجديدة التى شطبت حديثا على

ناصرية العباسية مع أبو خودة ، نينة تملك بعض الحلى القديمة ، وسوف أردها لها
أضعافا ..

— إليك رأى ، أفكار أطفال ولعب عيال ..

وجاء الفرج من حيث لا يحتسب . ففى زيارة عائلية لسراى رأفت باشا الزين

شكا صفوان أفندى ابنه للباشا فما أدهشه إلا أن هتف الباشا :

— برافو !

فتساءل صفوان أفندى فى حيرة بالغة .

— برافو يا باشا ؟

— تفكير سليم ، الدنيا يجب أن تتغير ، أتعرف أنها ستكون دكان الخردوات الوحيد في العباسية كلها !؟

فباخ انفعال الرجل ، وتساءل في تسليم :

— أليس لكل مشروع تمويل يناسبه ؟

فقال الباشا :

— هذا حق ، ويجب أن يكون مشروعاً قوياً ، سأقرضه بما يلزمه قرضاً حسناً بلا فوائد وسوف أسدد خطاه ..

وفي الحال تلاشت معارضة صفوان أفندى وست زهرانة ، وضحكت زبيدة هانم وراحت تداعب الشاب قائلة :

— مبارك عليك يا عم صادق !

وانقلب لعب العيال إلى جد ونحن لا نصدق . استؤجر الدكان ، وأمدّ الباشا صاحبنا برجل من دائرته ، ينظم له الدكان ويتفق مع التجار المناسب ويمسك له دفاتره ويصره بخفايا عمله ، على حين عرفه الباشا بتجار الجملة من معارفه وضمّنه عندهم . وقبل نهاية الصيف وافتتاح الجامعة جال صادق في دكانه مزهواً بين أرفف اصطفت فوقها المناديل والإشارات والسجائر وأدوات الخلاقة والحياكة وصنوف الشيكولاتة والملبن واللب والسوداني . وكان علينا أن نتكيف مع الوضع الجديد وأن نوليّه ما يستحق من جدية وإن بدأ أول الأمر كاللعب أو التمثيل . نمر به ، نتبادل الابتسام ، نراه واقفاً وراء الحاجز الخشبي ، أو ملبياً طلباً ، نرعى زبائنه من الغلمان والبنات والنساء ، وهو جاد تماماً ، حتى شارب تركه ينمو . ومن حسن الحظ أنه لم يتعلمني كشارب أبيه ، ولكنه استقر فوق شفته العليا كشارب شارلي شابلن . وبعد إغلاق الدكان يلحق بنا في قشتمر ، مهاجراً إلى دنيا الثقافة والسياسة . ويغبطه إسماعيل قدرى على كثرة

زبائنه من الجنس اللطيف فيعلق حمادة على ذلك بالمثل البلدى « يذى الحلق الى بلا ودان » . ويسأل باهتمام عن الريح فيقول :

— إني أسدد ذينى للباشا أولا ، ولكن يبقى لى ما لا يحلم به موظف شاب ..
وما لبث أن قذفنا بالقنبلة الثانية عندما قال ذات ليلة :

— سأشرع فى الزواج دون تأجيل ..

لم نعجب هذه المرة لما نعرفه من تدينه وعفته . ووضح لآذاننا الالهية صوت الزمن الغائب فى زحمة الأحداث وتتابع الفصول ، فبعضنا يجلسون فى مدرجات الجامعة وأحدنا يتوثب لاستكمال دينه . وقرر صادق أن يعلن رغبته ثم يستمهل أسرته الجديدة حتى يقتصد قدرا مناسبا من المال . ويبدو أن إبراهيم أفندى الوالى لم يعجبه تحول الشاب من أفندى إلى خردواتى ، ولكن صفوان أفندى قال له بكبرياء :

— ابنى حاصل على البكالوريا ، ألا تقرأ ما يكتب المفكرون عن الأعمال

الحررة ؟ .. ١٩

وجاءت موافقة إحسان صادقة وحاسمة وقاطعة فأخذت كل أسرة من جانبها تستعد لليوم السعيد . وقال صفوان النادى لابنه :

— لِمَ العجلة ؟ . كان الأوفق أن تنتظر حتى تسدد دينك ، ثم تقتصد على مهل حتى تضمن لنفسك مسكنا مناسبا من جميع النواحي ، ولا تنس أن إبراهيم أفندى الوالى رجل على قد حاله والله لا يكلف نفسا إلا وسعها ..

ولكن صادق طمأن أباه إلى أن الأمور تسير سيرا حسنا . وعرفنا نحن سر العجلة أو سر اللهفة على اليوم الموعود . وقال حمادة ضاحكا :

— ستكون معركة حامية لا هوادة فيها وربنا يستر ..

واستأجر صادق شقة من ثلاث حجرات فى العمارة التى تتبعها دكانه ،
(قشتمر)

وباعت والدته حليها القديمة لتغطية المهر والشبكة . وعند ذاك قال رأفت باشا لصديق على مسمع من والديه :

— زبيدة اقترحت علىّ أن أنزل لك عن باقى الدّين ولكننى رفضت ، أريد أن تبني نفسك بجهدك لا بعون أى مخلوق ..

ولكنه أهدى إليه أثاثا جميلا للصالة مكونا من كنبه وفوتيلين ، وطاقما من الصينى وأدوات المطبخ . وفرشت الشقة بأثاث بسيط ولكنه طبعاً جديد وذو رائحة خاصة عشعشت طويلا فى حواس صادق .

وفى ليلة الدخلة جمعنا سرادق صغير بشارع أبو خودة . جلسنا بين المدعوين فى صفوف متتابعة ، ولفت نظرنا صفوان أفندى بحمسه الضئيل وشاربه العملاق . وعلى المنصة أطل علينا عبد اللطيف البنا وتحتة وغنى لنا أغنيته الخفيفة السافرة :

ارخى الستارة الى فى ريحنا لحسن جيرانك تجرحنا
يا مبسوطين بالقوى يا احنا

ولاح صادق حائرا بين العمارة والسرادق ، يرحب بنا كثيرا ، يدارى بابتسامته المليحة حيرة جانحة . وقال لنا :

— سنتناول العشاء على مائدة خاصة .

فقال له حمادة الحلوانى :

— فى جيبى زجاجة خاصة هربتةا معى .. كل شىء مباح الليلة .

وقال طاهر :

— نحن مسئولون عنك حتى صباح الديك .

ولم يشهد رأفت باشا السرادق ولكن صاحبنا أخبرنا بأنه زار الأسرة مهتئا وأن حرمة تتوسط مجتمع النساء كاليدى . وطالبنا العريس بأن نشهد الزفة معه ،

فجس لنا النبض ولكن خباب المسعى . ولم يقبل المسئولون وجود شبان أغراب
بين المدعوات . ولما ذهب قال حمادة :
— ما له كأنه مضطرب أو خائف ..
فقال طاهر :

— المسألة فاصلة وخطيرة ولن تكون أحسن حالا منه ..
وتساءلنا متى يجيء يومنا ، وعلى أى حال يكون ، وماجت أنفسنا بالسرور
وحب الاستطلاع . وفى عودتنا إلى بيوتنا تخيلنا صديقنا فى خلوته المسرلة باللهفة
والارتباك التى طال انتظاره لها مذ ناهز الحلم .
وغاب عنا أسبوعا كاملا ، ولدى أول لقاء فى قشتمر انهمرت عليه الأسئلة فى
حصار يتقد بالرغبات المكتومة حتى اضطر إلى الاعتراف قائلا :
— لم أذق إلا كأسا واحدة ولكنها كانت كافية ، بل فوق الكفاية ، وما أن أغلق
الباب علينا حتى شعرت بأننى تحررت من أثقال الحياء والتقاليد وأشباح الزواجر
والنواهى ، وكان على أن أحررها من تاج الفل المطوق لرأسها ، وضممتها إلى
صدرى ، ولذة الوجود تفر فى حومة ارتباك غريب وجيشان رأس لم يصمد أمام
نفثة الكأس الحامية ، اعترفت لها بأن رأسى دائر فسمحت لى بالاستلقاء للراحة ،
وفعلت فتقضّى الليل وأنا بين اليقظة والنوم ، ثم انتبهت وانتبهت حواسى فأيقظتها
بقبلاقي ، ثم ... ، ماذا أقول ؟ . أخوكم سبع !
وضحك فى سعادة بادية مؤثرة وقال :
— كلانا شعلة لا تتمد !

إنه مكبوت ملهوف ذو شوق قديم ، وهى خفيفة وتعلن خفتها عن فائض من
الحيوية ، فهو شهر غسل مفعم بالعسل . ورجع إلى دكانه بعد عطلة امتدت ثلاثة
أيام . وباشر عمله بمفرده بعد أن أتم مندوب رأفت باشا مهمته فى تدريمه .

وأصبح الدكان ملتقى الذهاب والجائى ، فهو دكان الخردوات الوحيد وهو ضربة معلم . وخلق العباسية من الدكاكين يرجع إلى كون مساكنها على الجانبين خاصة ، سرايات فى الشرق وبيوتاً فى الغرب ، ولا توجد الدكاكين إلا بهدم بيت وإقامة عمارة فى موضعه . وانهمك صادق بكليته فى الحب والتجارة ، أما السياسة والثقافة فتراجعتا إلى هامش حياته . قال له حمادة الحلوانى :

— حياتك الراهنة لا تتسع للقراءة ..

فقال صادق أسفا :

— الجريدة على الأكثر ، وقد أقرأ مقالا فى المجلة ..

أما الوطن فقد تردى فى أحداث مباغته . تصدع الائتلاف وألف محمد محمود الوزارة ، فأوقف الدستور ، وقام الصراع بين الوفد بزعماء النحاس من ناحية وبين الملك ومحمد محمود والإنجليز من ناحية أخرى . وكان إسماعيل قدرى أشد الجميع انفعالا . هكذا هو متطرف دائما فى السياسة والثقافة والجنس . حمادة دونه فى الانفعال والحماس بما لا يقاس رغم أن الباشا والده من أساطين الصراع الدائر . واشترك إسماعيل فى كل مظاهرة طلابية ، على حين اكتفى صادق بإعلان امتعاضه ، ولم يشترك حمادة فى المظاهرات خارج أسوار الجامعة .. كأنما كان يترفع عن الاندماج فى الجماهير . ولبت طاهر فى موقف شبه حيادى . لم يعد يعلن تأييده لموقف أسرته ولكنه لم ينضم للجانب الآخر . وقال لنا يوما :

— فليحل القضية من يحلها ، إن لم يكن مصطفى النحاس فليكن محمد

محمود ..

ومرة أخرى أعلن ملاحظة لم تلتفت إليها من قبل ، قال :

— ألا ترون معى أن الوفد تقدمى فى السياسة ورجعى فى الفكر ، وأن الأحرار

رجعيون فى السياسة وتقدميون فى الفكر ؟!

والحق أننا في الثقافة لم نكن نفرق بين وفدى ودستورى ، ولا نتأثر بعواطفنا السياسية في تقدير من يستحق التقدير من خصومنا ، بل ألم نفتن بكتّاب أعدائنا أنفسهم من الإنجليز ؟!

وبقدر ما تحظى به حياتهم الثقافية الحرة من ازدهار وتقدم وجرأة فإن دراستهم الجامعية تعثرت في الفتور المنذر بالفشل . حمادة يتلقى محاضراته القانونية في برود ولا مبالاة . إسماعيل قدرى يعتبر نفسه منقيا في كلية الآداب ليحصل على شهادة لا يجبا ليشتري بها وظيفة بمقتها . ويواسيه صادق فيقول له مشجعا :
— بوسعك أن تكون أستاذا كبيرا .
فيقول :

— إذا حيل بين إنسان وهدفه فقد قضى عليه بالموت ..
أما طاهر فتاير على نشر شعره الجميل ، وثبت أقدامه في مجلة الفكر ، ومضى يترجم لها مختارات من الفرنسية ، وهى من ناحيتها نفخته بمكافآت مالية سعد بها سعادة غير محدودة وأنفق بعضها علينا في صورة حلوى ممتازة من جرونى ،
وأنذرناه بمعركة قادمة مع والديه ، فقال ضاحكا :
— لتكن معركة ..

فقال له صادق :
— اجبر بخاطرهم وانجح ثم افعل بنفسك ما تشاء بعد ذلك .
فأجاب بإصرار :
— لا أحب العبودية ..

وفي ختام العام الدراسى نجح حمادة وإسماعيل وسقط طاهر سقوطا شاملا .
انفجرت أزمة حقيقية في فيلا الأرملاوى . وخمد أملمهم في ولى العهد . وجلس أمام عبيد باشا وإنصاف هاتم في قفص الاتهام متهماً . قال الباشا بحزن عميق :

— هذه نتيجة شخص آخر على وجه اليقين !

وقالت لإنصاف هائم :

— مسئوليتك ثقيلة على قدر ذكائك ، وأنت مطالب بالتفسير ؟

طفح قلبه بالأسى ولكنه كان أكبر من أن يفرط في روحه فقال :

— دخلت الطب مرغما ، هذا هو التفسير .

فسأله أبوه وهو في غاية التعجب :

— لم تعد طفلا ، فماذا تريد ؟

— مستقبلي في الشعر والصحافة .

فهتف الرجل :

— خير أسود ..

— المسألة غاية في البساطة يا بابا .

— تصورك هذا لها يجعل منها مصيبة أخرى .

وتأوهت الهائم وهي تسند رأسها إلى يدها قائلة :

— أى خيبة أمل !

فقال بهدوء :

— أنا آسف جدا ، ولكن لا حيلة لي ..

وبعد أن فرغ من روايته لخص لنا الموقف قائلا :

— الفيللا في مأثم وأنا في غاية الكدر .

فسأله صادق :

— ألا تراجع نفسك ؟

فقال باسما :

— سألتحق قريبا جدا بالجملة كشاعر ومترجم ، سيكون لي مرتب ثابت ،

— ٥٥ —

أصدقائي هناك يقدرُوننى جدا ..

وقال إسماعيل قدرى :

— إني أؤيدك ..

وقال حمادة :

— أحيانا يثبت الآباء أنهم فى حاجة إلى تربية جديدة .

فقال له طاهر :

— أبوك بخلاف أبى ، لين العريكة ..

فقال حمادة بضيق :

— احتقارهم يطاردنى ..

وأُلق طاهر بمجلة الفكر . وكانت علاقته برثيفة تنمو وتشتد ، بل لعلها لم تعد

سرا ، فليس فى العباسية أسرار . ويوما قال لنا :

— لا مبرر للتأخير ، وعلى أن أفعل ما فعله صادق صفوان ..

وهمس صادق :

— الباشا لم يسترد أنفاسه بعد ١٩

فقال استهانة :

— لا بد مما ليس منه بد .

وتضاربت الأقوال فى قشتم . اقترح حمادة أن يتم الزواج سرا حتى يعرف فى

وقت مناسب . ونصح إسماعيل بأن يتم الزواج كأمر واقع ثم يبلغه طاهر أباه

برسالة تحرر فى اجتماعنا . ولكن طاهر قال بحزم :

— لا .. أريد أن أواجه التحديات بنفسى ..

ثم وهو يغرق فى الضحك :

— ولتفعل بنا القوة ما تشاء .

فى تلك الأيام المغرقة فى الانفصال تلقى إسماعيل قدرى الضربة القاضية الأخيرة . قاد مظاهرة فى الحرم الجامعى فقبض عليه خارج أسوار الجامعة ، وسرعان ما تقرر رفته نهائيا من الجامعة . هوى صديقنا مثيرا فينا عاصفة من الحزن والأسف . موت أبيه غير مجرى حياته وبدد آماله وها هو الجهاد يقضى على البقية الباقية . إنه وأمه يعيشان على معاش صغير ولا بد من احتواء المصيبة بحل سريع . وتبادلنا الآراء فى مجلسنا فقال صادق صفوان :

— لا بد من وظيفة بالبكالوريا أما المستقبل فيبد الله وحده .

فقال طاهر عبيد :

— لدينا أناس كبار يستشفع بهم عند الحاجة مثل يسرى باشا ورأفت باشا ..

فقال حمادة :

— أبى وفدى والرياح تهب اليوم ضد الوفد ..

فقال صادق :

— رأفت باشا من خصوم الوفد ولكنه لا يخبى الرجاء ..

وأبدي صادق مروءة محمود فاصطحب إسماعيل إلى سراى رأفت باشا ، وعرض عليه المشكلة من البداية إلى النهاية . ونظر الباشا إلى إسماعيل وقال كالعاتب :

— إذن فأنت وفدى ..

فقال صادق باسم :

— مثلى يا سعادة الباشا ..

ووعدهما خيرا ، وأنجز الرجل ما وعد ، وألحق إسماعيل قدرى بوظيفة كتابية بدار الكتب . هكذا انتهى الصديق الطامح للزعامة والقانون . وقال له حمادة معزيا :

— ٥٧ —

— دار الكتب تناسب عشاق الثقافة .

وقال له صادق :

— وسوف يرجع الوفد إلى الحكم يوماً ما ..

فقال إسماعيل بفتور :

— لا يعرفني أحد من القادة ..

ثم بصوت خافت :

— لم يبق لي في الحياة إلا الثقافة ..

وأراد حمادة أن يسرّى عنه فقال :

— وغاية التين الشوكي ..

وفي تلك الأثناء اختفى من مجال صحبتنا الأقران الآخرون ، واقتصر المجلس على خمستنا . أصبحنا من معالم المقهى . وفي العطلة الصيفية لا نتخلف عنه ليلة واحدة . ووقعنا في هوى النارجيلة وثملنا بنشوة الدخان . ونوعنا سهراتنا مساء كل خميس فأضفنا إلى السينما المسرح والصاله ، وزودنا عشاءنا بالخمر أحياناً ، بل عرف حمادة لف سيجارة الحشيش . وظل قشتمر أحب الأماكن إلينا بما هو المأوى الذى نخلو فيه إلى أنفسنا وتبادل عواطف المودة . وقد بدأ منا ثلاثة — صادق وإسماعيل وطاهر — حياتهم العملية ، أما حمادة فواصل حياته الجامعية الفاترة . وبدا صادق أسعدنا فقد حقق حلمه فى الحب والعمل . وكَم يسعده التنويه بنعمة ربنا عليه فهو يقول لدى كل مناسبة :

— الزواج نعمة الله الكبرى على عبده .

وفي الوقت المناسب أيضاً بشرنا قائلًا :

— دخلنا فى متاعب الوحم السارة !

وأنبأ وجهه الصافى فى الأيام التالية عن قلق طارئ كالماء الرائق الذى لا يخفى

سرايره ، أهو الوحى يا ترى ؟ . وصارحنا بهمه قائلا :

— حبها النهم توقف فجأة !

واستحوذت علينا حيرة بالغة حتى قال :

— أخبرنى نفر من أهلها أن تلك حال عارضة وعابرة وأن لا داعى للقلق ..

وعند ذاك قال له حمادة :

— نحن قوم لا علم لنا بهذه التجارب ، فاسعد وحدك واطلق وحدك ..

وإذا بطاهر يقتحم قلوبنا بحكايته . جاءنا ليلة مخطوف اللون ليقول لنا :

— وقعت الواقعة !

عرفنا بداهة ما يعنى وتطلعنا إليه فى إشفاق فقال :

— أعلنت الحرب .

لم يكن بقى بينه وبين والديه إلا الصمت . حتى شقيقته اللتان تزوجتا من دبلوماسيين بعثتا إليه برسالتين يحنانه فيها على إرضاء أبيه . وتكمن أزمته الحقيقية فى حبه والديه مع حرصه الكامل على استقلاله . ولم يعد يحتمل التأجيل ولا يقبل بالهرب ، فمضى إليهما فى الشرفة المطلة على الحديقة فى الأصيل . وبدون مقدمات قال بصراحته المعهودة :

— إنى أفكر جادا فى الزواج ..

لم يظهر أى رد فعل كما توقع ، غاية ما فى الأمر أن الباشا تساءل متهمكا :

— هل توجد فتاة محترمة ترضى بفتى فى وضعك ؟

فقال بهدوء :

— وجدتها وهى جد راضية .

وانفلت الباشا من بروده فقال بانفعال شديد :

— إذن هو حق ما سمعت وأبئت تصديقه ؟

— ٥٩ —

وسألته الهائم بمرارة شديدة :

— ماذا تقول ؟

فقال بهدوء :

— لا أدرى شيئا عما سمعتم ولكنها رقيقة حمزة !

— البنت المريضة !

وصاح الأب :

— البنت صاحبة السمعة ...

فقاطعه طاهر واقفا :

— بابا ، من فضلك ..

فصاح الباشا :

— ثمة قوة مجهولة تريد أن تنتقم منى وتنكل بسمعتى ..

وهمست الهائم :

— يا للخسارة يا طاهر ..

ورجع الأب يقول :

— حذار .. حذار أن تقترب هذه البنت من بيتنا ..

فقال طاهر بأسى :

— أمرك مطاع ..

تابعناه متأثرين فابتسم ابتسامة لا معنى لها وقال :

— وحملت أشياءى وذهبت ..

فسأل صادق :

— هل تركوك بلا مقاومة ..

فقال ساخرا :

— ٦٠ —

— إلى أعيش مؤقتا في البيت الصيفي بسرأى الحلوانى ..
— وبعد ذلك ؟

— اتفقت مع رثيفة على الإقامة في شقتهم بعد القران فترة من الزمن ..
يا لها من رحلة طويلة حقا يقطعها العاشق من بيت السرايات إلى شقة صغيرة
متقشفة يطل جانب منها على القرافة . وبدا لنا صديقنا كأنه مغامر لا يبالي بما
يصادفه . اختار حياته بجرأة غريبة وقطع ما بينه وبين أسرته المجيدة بوثة جنونية .
ودار نقاشنا حول الخطوات التنفيذية ، واتفق الرأى أخيرا على أن يكتب الكتاب
في مسكن صادق صفوان ونحتفل بعد ذلك بالعروسين في كازينو العائلات
بالظاهر . والحق أننا نستطيع أن نفرح في أى مكان . وأخليت حجرة في شقة
رثيفة ففرشت بحجرة نوم جديدة اشترت من تاجر أثاث بشارع الشرفا ،
بالإضافة إلى حجرة نوم أم رثيفة ، أما الحجرة الثالثة فجعلت للمعيشة والسفرة .
وكان الجو خريفا معتدلا فجمعتنا مائدة خاصة للشراب والعشاء . وتبدت رثيفة
رائقة سعيدة ، ولم تشهد أمها الحفل لكبر السن أو لعدم الاستعداد . وشربنا
وأكلنا وضحكنا ، ومضى ركبنا بعد ذلك في تاكسين إلى عمارة العروس .
تزوج طاهر في العشرين من عمره ، كذلك كانت رثيفة في العشرين ، وإن
نحن إسماعيل أنها أكبر من ذلك . ولدى عودتنا إلى بيوتنا تبادلنا حديثا ذا شجون .
قال صادق :

— الحياة لعبة بيد الحظ فلندع له بالسعادة ..

فقال حمادة :

— أنا معجب بشجاعته ، إنه شخص غير عادى ..

فقال إسماعيل قدرى :

— أرجو ألا يندم أبدا ..

فتساءل صادق :

— هل يطبق حياته الجديدة وهو ربيب النعمة والترف ١٩

فقال حمادة ضاحكا :

— هي لدرجة ما مغامرة سينائية ..

على أى حال انضم طاهر إلى حزب الاستقرار والسعادة ، وعرفنا عن طريق صادق وطاهر حبا واقعيا رشيدا ، لا كالحب الذى نشهده أحيانا فى السينما ، ولا كالحب الذى حدثنا عنه المنفلوطى . وبفضل ذلك صار منا عضوان منتجان ، أحدهما تاجر والآخر شاعر ، وعمما قريب يصيران والدين ، وهو خير من الإبحار فى محيط الثقافة شمالا وجنوبا دون ثمرة أو التمداد فى تشريح السياسة المصرية دون عمل . ولم نكن نتصور أن ينتهى إسماعيل قدرى إلى حياة الوظيفة الخاملة ، وسأله طاهر محرضا :

— لماذا لا تشق سبيلك إلى الكتابة ١٩

فقال بفتور :

— لم يجر لى ذلك فى حلم ..

كلا ، لم نتصور أن يقنع بالهزيمة ويستسلم لمخدر الروتين . وآى ذلك أن حماسه السياسى لم يهن إن لم يكن اشتد . ولم يبق فينا من هو مجرد علامة استفهام إلا حمادة ذلك الرحالة بين الأفكار والمذاهب الذى لا يستقر على حال أكثر من أيام ، حتى اعتاد طاهر أن يداعبه عند اللقاء متسائلا :

— من تكون اليوم ١٩

ويواصل ركن قشتمر سمره ما بين الأصالة والمعاصرة منبرا بكل جديد فى الفكر أو العلم متطلعا إلى حكم صالح ينعم فيه بالاستقلال والديموقراطية . وتابعنا باهتمام حار صادق جهاد الوفد فى مكافحة الدكتاتورية ، أما صادق فكان يحسب

الأيام في جريانها منتظرا الوليد الذى يوجد به القدر . وكانت ولادة إحسان غير
يسيرة فاضطر إلى استدعاء طبيب لمعاونة الداية ، وتلقى بعد العناء من ربه وليده
الأول الذى أسماه إبراهيم تيمنا باسم ألى الأنبياء . وفرح به صادق فرحتين ، فرحة
بمجيئه ، وفرحة بتوقع عوده أمه إلى طبيعتها الأولى . وبالمناسبة قال طاهر :
— لا أحب فكرة الإنجاب .

فسأله صادق الذى أصبح ذا تجربة :

— ورثفة ؟

— طبعا العكس ..

— عظيم ، سوف تنجب عاجلا أو آجلا ..

فقال باستسلام :

— بل أخشى أن يكون ذلك قد تم !

فقال صادق بأسلوبه الوعظي :

— هذا حقها فلا تأسف ..

كان بعضنا يخاف على طاهر ردة الفعل بعد أن يخبو لهيب رغبته . الحق أنه ،
استمر في حبه فدل على أنه أحب حبا صادقا ، وهضم مقامه الجديد بيسر ومرح ،
وازداد حماسا في عمله وإنتاجه ونجاحه وكأنه لم يخلق إلا لذلك . ومع أنه ابن ذوات
كحمادة ، إلا أنه كان ذا استعداد شعبى فطرى ، حتى منظره اختلف في ذلك عن
أبيه وشقيقته بالإضافة إلى العادات والسلوك التى اكتسبها من صحبتنا وانغمس
فيها حتى قمة رأسه . وفي أول عهده بالزواج أراد أن تنقطع رثفة عن عملها
وتستقر في بيتها فلم تمنع وقالت له :

— أنا على أتم الاستعداد ولكن ألا يزيد ذلك من أعبائك ؟!

ففكر وحسب ثم قرر أن يتركها في عملها الذى كانت تربح منه أضعاف

مرتبته ، وقال لنا بحجارة :

— إنها على خلق وجديرة بكل ثقة .

وعجبنا في أنفسنا لما ذاع عنها قديما من غير أى دليل . وأهدى إلينا الزمن المتجههم بسمة بسقوط الحكم الدكتاتورى ، ولكن حكم الوفد مضى فى غمضة عين عقب فشل المفاوضات فلم يدم أكثر من إشراقة شمس عابرة فى يوم غائم طويل ، وخلفه فى الحكم إسماعيل صدق مفتتحا عصرا داميا من التعسف والإرهاب . وماجت البلاد بالمظاهرات وأنت من كثرة الضحايا ، وجعل إسماعيل قدرى يرقب المعارك فى ميدان باب الخلق من نافذة حجرته بدار الكتب وهو يتعجب كيف قضى عليه بأن يكون موظفا ويحال بينه وبين الاشتراك فى المظاهرات . وأظلت جماعتنا سحابة قلق لاعتكاف يسرى باشا الحلوانى فى سراياه مريضا ، وما أعقب ذلك من إجراء جراحة له فى البروستاتا . ومالبت أن تُوفى الباشا فى المستشفى الفرنسى على مبعدة يسيرة من سراياه . فقدت العباسية بموته أهم شخصية اقتصادية ووطنية بين أبنائها ، كما خسر الوفد أحد مجاهديه الأوائل . وشيعت جنازته فى موكب عظيم تقدمه أعضاء الوفد وعلى رأسهم مصطفى النحاس . ورغم فنور العلاقة بين الأب الراحل وصديقنا حمادة إلا أن الحزن استغرق الفتى فى يوم الفراق ، وبكى فى المدفن بكاء صادقا كأخيه توفيق . ولكن الأمر الذى لا شك فيه أنه شعر بالتححر والاستقلال وأنه سعد بذلك الشعور . وترك الإدارة لشقيقه ، واهتم بفرز ميراثه من الأموال السائلة والعقارات ، وصادف ذلك أن بلغ سن الرشد قبل الوفاة بأسابيع . ووضح لنا جميعا أن صديقنا أصبح من الأغنياء بكل معنى الكلمة . ونصحه صادق قائلا :

— حافظ على حسن العلاقة مع أخيك تفاديا من وجع الدماغ .

فقال موافقا :

— أوافق تماماً ، ولكى أحصل على نصيبى السنوى من أرباح المصنع دون متاعب ..

وقال له إسماعيل قدرى :

— وعليك أن تتم دراستك القانونية ..

فتساءل بسخرية :

— وما وجه الحكمة فى ذلك ؟

— على الأقل حتى لا يهدر تعب مرحلة طويلة من الحياة !

فقال باستهانة :

— كلام فارغ ..

ولم يتردد فهجر كلية الحقوق غير آسف وغير مكترث لرجاء والدته . ودعاه التحرر إلى تحقيق أحلام ألحت على رأسه منذ قديم فاستأجر شقة فى خان الخليلى وأثنى على الطريقة الشرقية ، كما أعد لنفسه ناديا خاصا فى عوامة بشارع الجبلية ، وقال لنا بسرور :

— كى يتسع أمامكم مجال التسلية ..

جاء الوقت ليشبع شغفه بالحياة العريضة ، حسية وعقلية ، فى رحلته الطويلة المتحررة من أى التزام . وكما يأبى الانتماء لرأى فهو يرفض الارتباط بعمل . لم يتأثر تأثرنا بزواج صادق وطاهر ، فقد هيج الزواج حنيننا إلى الحياة لزوجية ، أما هو فلم يتزعزع أثمة عن موقفه . وتردد نهاره بين خان الخليلى وشارع الجبلية ، يقرأ ، يستمع إلى الأسطوانات ، يشرب القليل من الخمر وعشق الحشيش ، ثم لابد أن يختم يومه بجلسة ساعتين على الأقل فى قشمر ، وقال لنا بوضوح :

— غاية الإنسان من كل سعى أن يبلغ الحياة التى أستمتع بها اليوم .

وقال طاهر عبيد :

— عرف صديقنا ما يناسبه ..

فقال صادق بارتياح :

— انتظر ، قد ينقلب كل شيء رأسا على عقب !

وها هو إسماعيل قدرى يمارس حياته وكأنما قد استنم إليها بصورة نهائية ، موظف صغير أبدي ، في بيت محدود الرزق بلا مستقبل ، رأسه يتضخم بالاطلاع والتفكير ، وقلبه قلق بالشك الذى اجتاحه ، ومسراته الحسية متدنية وتعيسه . لماذا لا يلقي الصعاب بالتحدى المناسب لقدراته ؟ . لماذا لا يحاول الكتابة ؟ . لماذا لا يدرس القانون من الخارج ؟ . لماذا يستسلم للهزيمة ؟ . وأين تلاشت همته العالية ؟ . وكأنه لم يبق له من المتع الطيبة الدنيوية إلا أكلة فاخرة وكأسان من الويسكى فى العوامة أو خان الخليلي . ولكنه لم يفقد يقظته العقلية المتألقة . ولما جاء حمادة ببعض الخواجات يستعين بهم على تذوق الفن التشكيلي والموسيقى الغربية تجلى إسماعيل على رأس المتذوقين ، وربما فتر حماس حمادة أحيانا أما حماسه هو فقد استمر . واهتمامه مع ذلك بالفن والأدب والفلسفة لا يقاس باهتمامه بالسياسة ورؤاها ، وفى ذلك الميدان يعد معلمنا الأول ، ووضع ميله للديمقراطية ، وإن قال بإيمان :

— لا ديمقراطية بلا عدالة اجتماعية ..

ويظل فى ظاهره على الأقل موظفا صغيرا ، يثابر على استعارة الكتب ، والتعلق بالوفد ، والسمر فى قشتمر ، ومعاشرة الأسى وهو ما لا يلاحظه إلا من يستشف أعماق عينيه .

طاهر عبيد — رغم منفاه الاختيارى — أسعدنا فيما يبدو . بحسبه أن شعره يعتبر اليوم أجمل ما ينشر من شعر ، أو فى الأقل أجمل ما ينشر من شعر فى مجلة (قشتمر)

الفكر ذائعة الصيت . وها نحن نلمح رقيقة في ذهابها وإيابها مرتدية فساتينها الفضفاضة لتندارى حبلها . وفي الوقت المناسب أنجبت للشاعر درية . وثل طاهر بالأبوة كما ثل بها صادق من قبل ، وتساءلنا ؛ ترى هل علم عبيد باشا الأرملاوى وإنصاف هاتم القللى بمقدم حفيدتهما ؟ . الواقع يقطع بأن صديقنا قد انفصل عن أسرته إلى الأبد . ووجه الباشا المتعجرف لا يعد بأى أمل في التراجع ، والهاتم لا تقل عنه ترفعا واعترابا . ولم يتصور أحدنا أن تقف الهاتم موقف الند من أم رقيقة العجوز ، والمسألة تبدو حلما من الأحلام أو أسطورة نسجها قلب شاعر متمرد عذب . يسأله حمادة أحيانا متذكرا حبه القديم لوالديه :

— ألا تحن أحيانا إلى بين السرايات ؟

فيتفكر مليا ثم يقول مداريا أشجانه بالابتسام :

— اهجر من يهجرك ..

ويقول عن درية بفخار :

— جميلة حقا وصدقا .. اقتبست أجمل ما فى ماما ورقيقة ..

فقال له صادق ضاحكا :

— وإذا قدر الله أن تقتبس منك بدانتك أيضا أصبحت بمبة كشر عصرها !

وقال حمادة ذات ليلة :

— صادق لم يعد كالعهد به ، ألم تلاحظوا ذلك ؟

فقال طاهر عبيد :

— كما تقول تماما ..

ولما جاء صادق فى مياعده المتأخر نسييا أحاطت به الأعين متفحصة . ولاحظ

هو ذلك ولكنه تجاهله . وقال حمادة :

— فيك شىء تغير !

فتنه واستمر في صمته . وتوالت الأسئلة عن الصحة والأحوال حتى قال ..
— إحسان لم تعد كما كانت ..

شد انتباهنا بقوة . تستحوذ الأسرار العائلية علينا أحيانا بأشد ما تستحوذ
المذابح الدكتاتورية أو الأفكار الفلسفية .. وواصل صادق حديثه قائلا :
— إنها اليوم أمّ مائة بالمائة ..

ولم نفهم نحن العزاب ، ولكن طاهر أيضا يبدو مثلنا .

— مع واجبات البيت ، فلا شيء يهم إلا الصغير ..

ونظر في وجوهنا بوجه جاد ثم قال :

— وأنا ١٢ ، حسبت أن الأمومة تبدأ هكذا ثم يرجع كل شيء إلى أصله ،

ولكن انتظاري نفذ ..

فقال طاهر عبيد :

— الوقت يتسع لكل شيء ..

فتنه صادق قائلا :

— كانت شعلة فأصبحت رمادا .

— لعلها الصبغة ١٢

— الصبغة في أحسن أحوالها .. بل لعلها تسمن أكثر مما يجب ، تفقد رشاقتها ،

وتطل من عينيها نظرة هادئة بل خامدة ، وتعنى بكل شيء ولكنها تهمل نفسها ،
منظر جديد تماما ..

وتساءل طاهر :

— لا مؤاخذه .. هل ..

فقاطعه بصراحة :

— تستجيب إذا استجابت بدافع الواجب لا الرغبة !

— هل وقع بينكما شيء ؟

— أبدا ، نحن على أتم صفاء ، المسألة أعمق من ذلك .

فقال له إسماعيل :

— عليك بالمزيد من الصبر .

— قلت لها مرة : مالك يا عزيزتى ؟ لماذا تهملين منظرى ؟ . كنت دائما وردة

يائعة . فاعتذرت بعملها فى البيت وعنايتها بالولد .. أعذار واهية وغير مقبولة .. ،
وأكثر من ذلك فهى راضية وسعيدة ، غاية فى النشاط ، لا تهمل شيئا ولكنها تهمل
أهم شيء ، بيتنا مثال فى نظافته وطعامه ، الولد يتألق دائما فى اللفائف الناصعة ،
ورغم ذلك فربة البيت كبرت مائة عام !

ونظر حمادة إلى طاهر عبيد وسأله :

— كيف ترى ذلك ؟

فقال طاهر :

— إنها حال شاذة ..

فتساءل إسماعيل :

— هل يلزم استشارة طبيب ؟

فقال صادق :

— تحت إلى ذلك فاستاءت ودمعت عينها .. ، إنها مثال فى الحياء والتهديب
والطاعة فاعتبرت تلميحي إهانة ، وذكرتني بأنه لا يتقضى شيء .. فقلت لها
إن العلاقة بين الزوجين لا يمكن أن تكون واجبا مفروضا ، فأكدت لى أنها
ليست كذلك !

ولم نملك إلا أن نحثه على الصبر ونمنيه بالشفاء ، ولكننا أدركنا مدى خطبه .
إنه رجل يتفانى فى عمله ولا عزاء له فى يومه الشاق إلا الحب ، وهو لا يشبع منه

فكيف يصبر على بلواه ١٩

وأخيرا قال لنا :

— ثم إنها حملت من جديد وأخشى أن يزداد الأمر سوءاً ..
وبات صادق أقلنا مرحا . وجاءته إحسان بابنه الثانى « صبرى » ، وازدادت
الحال سوءا كما توقع حتى قال لنا :

— إنها سيدة مثالية ، وأُم مثالية ، أما أنا فزوج بائس ..
وصعد قشتمر وكأنه وطن ثان لنا . وثوَّفى صاحبه الكهل وحلَّ محله ابنه .
وترددت فيه أصواتنا تحتفل بسقوط صديق . وبشائر سياسية جديدة ، وأنباء عن
نجاح النازى فى ألمانيا بزعامة هتلر ، ومعاهدة ١٩٣٦ . فى أثناء تلك الفترة الطويلة
نسبيا لاحظنا أن حمادة يسرى الحلوانى يهتم اهتماما خاصا بالعمارة القائمة فى
الجانب الآخر من الطريق . هناك فى الدور الرابع تلوح فتاة فى النافذة حيناً وفى
الشرفة حيناً آخر . بنت تستحق الاهتمام ، ظهرت حديثا فى أسرة سكنت فى
العمارة منذ وقت قصير . ومن موقعها القريب نسبيا يتبدى وجهها الأسمر
المستدير غاية فى اللطف ، بعينها الواسعتين وشعرها الغزير ، فى هالة محترمة تدل
على أنها بنت ناس . ثم تتابع الأخبار مسجلة أن أباه طبيب منقول من الأرياف
ليشغل وظيفة هامة فى وزارة الصحة . وقع حمادة — فيما بدا — فى شباك الحسن
المطل ، فواظب على الحضور إلى قشتمر مبكرا لينعم برؤيتها فى ضوء النهار . كان
الوقت ربيعا ، ونحن فى الربيع والصيف ننقل مجلسنا إلى الحديقة الصغيرة فلا يقوم
حاجز بيننا وبين الجانب الآخر من الطريق المفضى إلى شارع فاروق . وكان قد بلغ
الخامسة والعشرين أو ما يزيد وليس فى حياته من قصص الحب إلا تلك القصة
الخاطفة التى أجهضت فى معركة . وبعد أن أقام لمزاجه ركنين فى خان الخليلي
والجبلاية زود حياته بالعلاقات النسائية الطائفة ، فتجىء المرأة مرة أو مرتين

— ٧٠ —

ثم تذهب لحالها ، وهو يجد مسرته في التنقل دون ارتباط أو التزام كحاله في الآراء والمذاهب . فلأول مرة تعتوره أمارات العاشقين ، فيرسل النظر ، ويتورد خداه ، ويتخلى عن الاستهانة ، ويقلقه الشوق والوجد . وقال صادق متناسيا شجونه :
— لا يدهشني ذلك على أى حال ..

ولم ينف حمادة التهمة مستسلما لسحر الواقع . وقال طاهر عبيد :
— على بركة الله ! .. اشتقنا للأفراح والليالي الملاح ..
ولم تضع رسائله في الهواء فتلقى رسائل من العينين الواسعتين ونحن شهود ،
حتى قال إسماعيل قدرى :
— آن لك أن تتحرك ..

نحن نحب الحب ، ونرحب بتسائمه ، علها تخفف من توتر جونا المشحون
بنبوءات الحرب ، وتُذّر السياسة ، وعواصف الثقافة المقعنة بالمتعة الضارية
والشكوك العاتية . ولكن صاحبنا يتمتع ويحلم ولا تند عنه حركة . وقال إسماعيل
مفسرا :

— اعذروه ، ليس من اليسير أن يبيع حريته الطاغية ويسلم قلبه وروحه للقيود
الأبدية ..

ولكن الحركة دبت في الجانِب الآخر بشجاعة فائقة ونية صافية . ظهرت في
الشرقة ذات أصيل في ثوب أنيق وهيئة دالة على الخروج إلى الطريق . وألقت عليه
نظرة ناطقة لا تحتمل التردد بعد ذلك . هتف طاهر :

— دخلنا في الجلد ؟

وتساءل صادق :

— هل تخرج وحدها ؟

ورجع طاهر يقول له :

— إنها دعوة صريحة فعليك أن تستجيب بطريقة ما ، جُسَّ النبض بإشارة ..
وزرر جاكنته كمن يتأهب للقيام ، فابتسمت ابتسامة واضحة . وقال له
إسماعيل :

— توكل على الله ..

من شدة توتره لم يبتسم . غابت الفتاة من الشرفة وقام هو في شيء من الحدة
وغادر الحديقة . أتبعناه أنظارنا حتى اختفى . وقال صادق :

— إنها تدعوه إلى لقاء فاصل ، وسوف يتزوج حمادة قبل نهاية العام .
جاء في اليوم التالي متأخرا ، وطالعنا بوجهه القديم الهادئ الخالي من ذبذبات
العواطف وتوهج الأمل . وجمنا بعض الشيء وتساءل طاهر في إشفاق :
— هل نهنيء ؟

فبدرت منه ضحكة باردة وقال :

— انسوا الموضوع تماما ..

ولكن حب الاستطلاع لم يترك لنا حيلة ، فقال بضيق :
— انتظرت أمس عند محطة الترام ، وحتى تلك اللحظة كنت عاشقا تماما ،
بما كان صادق وكما كان طاهر ..

— ثم ؟ ..

— رأيته بصحبة مامتها قادمتين نحو المحطة ، تخيلت ما سيحدث ، سنستقل
معاً حجرة الدرجة الأولى ، يتم التعارف ، نجلس بعد ذلك في مكان مناسب
لتحديد الخطوط الأولى ، أجل لم يعد بيني وبين النهاية إلا خطوة ، خطوة واحدة
وأنقل من حال إلى حال ، من دنيا إلى دنيا ، من فلسفة إلى فلسفة ، وسرعان
ما وجدتني على برزخ فاصل بين حلمي الطويل بالحرية المطلقة وبين عاطفة طارئة
مغرية تدعوني إلى العبودية ، وشعرت بتمزق فظيع ، البنت جميلة وتطالعني بعينين

مرحبتين ، ووراءها أمها تضيء علينا طهارة وشرعية ، تمزقُ تماما ، ملكنى رعب هائل ، وجاء الترام ووقف ، وصعدت إليه أمها ، ثم تبعتها وهى تبتسم إلى ، وما على إلا أن أصعد وينتهى كل شيء ، ولكنى تسمرت فى مكانى ، ونظرت بعيدا هربا من عينيها ، وتحرك الترام ، ولبثت فى موضعى وأنا أتهجد بعمق وأتذوق النجاة وترتعش أطرافى من شدة الخجل ..

لفنا الذهول مليا ثم انفجرنا ضاحكين :

— الله يخيبك يا بعيد !

— أخرجت البنت وأمها ..

— بنت مناسبة جدا ..

— سوف تندم ..

وعند ذاك قال برعاء :

— انسوا الموضوع تماما ..

وسكننا احتراماً لمأساته . ربما نعود إلى الموضوع فيما بعد . الحق أن الموضوع فى ظاهره بَيِّن الوضوح ، فهذا رجل يعشق الحرية المطلقة ، وله من الظروف المادية ما ينيح له ذلك . ولكن كيف يطيق إنسان سوى ألا يلتزم بشيء ؟ .. لقد تصور إسماعيل قدرى أنه رجل عاجز عن الحب الحقيقى ، ولكنه أحب الفتاة ، وهل لا يكون الحب حبا إلا إذا جرى على شاكلة حب المجانين أو حتى الحب السينمائى ؟! ولكن حمادة فى هذه الدنيا كزائر متحف للعرض لا للبيع . فى السراى مع مامته ، فى خان الخليلى مع الجوزة ، فى العوامة مع المحترفات ، فى المكتبة مع العقول والقلوب . وقال إسماعيل قدرى مرة :

— إذا تعددت الأهداف تلاشى الهدف .

أما صادق صفوان فسلم بالأمر الواقع قائلا :

— أعترف بخطئى وأقول إن حمادة لن يتزوج أبدا ..

وقد تزوج أخوه توفيق بعد عام واحد من وفاة أبيه ، وعن طريق أمه عفيفة هانم بدر الدين ، من إحدى عقائل الأسر الكريمة بالعباسية الشرقية . وأرادت الهانم أن تزوج حمادة أيضا ولكنه خيب مسعاها فى ذلك أيضا . وقالت المرأة متسائلة :

— لا عمل ، ولا دراسة ، ولا زواج ، لماذا تعيش !؟

أما الشيء الردىء فهو أن أسرار الحياة الخاصة لحمادة يسرى الحلوانى قد فاحت فى العباسية ولهجت بها الألسنة . وما العباسية إلا قبيلة كبيرة لا يخفى فيها سر . عرف الناس سر الفتى الحائر ، وشقته الشرقية بخان الخليلى وعوامته الجميلة بشارع الجبلية ، وعُرف بالحشاش المنحل . وقالت عفيفة هانم :

— يا خسارة أولاد الأكابر ، ومن حمادة الحلوانى إلى طاهر عبيد يا قلبى لا تحزن !

وقيل أيضا إن شلتنا اعتبرت المسئولة عن تدهور ابنتى العباسية الشرقية ، ولما انتهت إلينا تلك الأنباء تساءل إسماعيل قدرى ضاحكا :

— أنلأم على خلق شاعر شعبى فريد وعمر خيام حديث !؟

أما صادق صفوان فقال مازحا أيضا :

— الحق أن العباسية الشرقية هى التى أفسدتكم بتقديمها الخمر والحشيش لكم فى خان الخليلى والجبلية ، فويل لأولاد الناس الطيبين من أبناء الذوات ! ولكن إسماعيل قدرى هو من يستحق الرثاء حقا . ولو حسنت أحواله لتقدم الجميع فى طريق الزواج لما عرف عنه من الانضباط وحب الاستقرار . ومما يُحسب له أن أوار وطنيته لم يخبُ رغم إحباطه الشديد ، وأنه كان أشدنا غضبا وسخطا على الملك فاروق فى خلافه مع الوفد ولم يغفر له إقالاته الوقحة للنحاس

أبدا ، وقال بعنف :

— قديما كان ماهر والنقراشي يصدران حكم الإعدام على الخونة ، أما اليوم

فهما يستحقان الإعدام ..

وفي تلك الأيام توفي صفوان أفندي النادى والد صادق . إنه ألصق الآباء بوجداننا بسبب شاربته الأشهر ، ودُفن يوم إقالة النحاس من الوزارة . ويحكى صادق خبر والده فيقول :

— كنت منهمكا في عملي بالمكان عندما جاء أبى لزيارتي على غير عادة ، قال لي إنه أحب أن يجالسني قليلا قبل أن يذهب إلى مقهى عبده بميدان فاروق ، فرحبت به بكل حبي واحترامى ، وأحمد الله أننى لم أتخلف عن زيارة بيتنا في بين الجنائين كل يوم جمعة وأننى لم أقصر في معاونته بعد إحالته على المعاش ، ورأيتة نحيفا أكثر من المؤلف فرق قلبى له جدا ، وراح يسألنى عن إبراهيم وصبرى وإحسان ، رجوته أن يُعنى بصحته ، فقال لى باسمنا : إن جدى كان أنحف منه لكنه عاش بعد الثمانين ، ثم ودعنى وانصرف داعيا لى ولأسرتى بطول العمر ، وقبلت يده وصحبته فى سيره حتى ناصية أبو خودة ، وأنتم تعرفون ما حدث بعد ذلك .. أجل فقد مات بالسكتة القلبية وهو يلعب الطاولة فى مقهى عبده . وجاءنا الخبر فى قشتمرقمنا مع صادق جميعا ولم نفارقه حتى وُورى الرجل فى التراب . وقد حزن صادق لوفاة أبيه حزنا شديدا ، وصلى على جثمانه داخل قبره . وفى السراى لىلا استمعنا لتلاوة الشيخ الشعشاعى ، ورأينا رأفت باشا الزين بين المعزين ، ولم يخل ركننا من حديث عن السياسة والإقالة .

وشهَدنا مقهى قشتمرقمنا ونحن نودع الشباب ونخطو أول خطوة فى الرجولة . ومارسنا الحياة بين العمل والثقافة والسمر ، وكابدنا حياتنا السياسية بين الأمل والنكد ، وكأنا قضى علينا بمواجهة تحديات غليظة راسخة نرسف فى أغلالها

ونعاني من قهرها . وبعيدا عن ذلك ؛ منا من يستمتع بكل متعة متاحة كحمادة ، أو من يثبت أقدامه في دنيا المال كصادق ، أو من يحقق ذاته في عالم الفن والشهرة كطاهر ، ومنا من ينتظر . وتخضب سمرنا أحيانا بلون من الحديث جديد عن جيل جديد ؛ عن إبراهيم وصبرى ابْنَيْ صادق ، ودرية ابنة طاهر . إبراهيم اليوم ابن تسع وهو في المرحلة الابتدائية بمدرسة الحسينية للبنين ، ودرية تشارف الثامنة وهى في المرحلة الابتدائية بمدرسة العباسية للبنات ، وصبرى في السابعة يتأهب للالتحاق بالابتدائى . ونسأل أحيانا : كيف يتعاملون مع أبنائهم ؟ ويقول صادق :

— رعاية في غير شدة ، والاستثناء وارد أيضا ، أحيانا تهولنى جرأتهم على وعدم خوفهم منى ، ولكن أليس ذلك أفضل ؟
أما طاهر فيقول :

— أنا مغرم بدرية ؛ بجمالها وفطنتها ، لا أمد يدى إليها بأذى ، وأحول بينها وبين مامتها أحيانا ، رقيقة تعتبر شديدة بالقياس إلى . ولا بأس من ذلك ..
وقد عرفنا الأولاد وعرفونا في عطلات الأعياد عندما أصبحوا آباءهم إلى قشتمر في ملابسهم الجديدة .

وتلبد جو الأرض بالغيوم ، ومضت الدراما الإنسانية في نموها نحو التأزم والتوتر ، حتى اجتاحت الجيوش الألمانية بولندا ، وما لبثت انجلترا وفرنسا أن أعلنتا الحرب على ألمانيا ، وقال إسماعيل قدرى :

— ها هى الحرب العظمى الثانية ..

فقال حمادة متسولا من الهواء طمأنينة :

— ولكن إيطاليا لم تعلن الحرب !

على أى حال لم يشك أحد في أنها ستعلنها اليوم أو غدا ، ومن ثمَّ تصير مصر

ميدان حرب بين الحلفاء والمحور . ونشطت الحكومة إلى التأهب حيال المجهول ، فأذاعت المعلومات المفيدة عن الغارات ولفتت الأنظار إلى الإرشادات الواجبة ، ومضت تطلّي مصابيح الشوارع باللون الأزرق ، وتضفى على ليالينا سوادا لا عهد لنا به ، بل وبدأت تخطط لحفر الخائى فى شتى الأحياء .

ولم تتوقف عجلة حياتنا عن الدوران ، وشحنها الأخبار بالإثارة واليقظة . حمادة الحلوانى يواصل حياته بين السراى والعوامة وخان الخليلي ، وأضاف إلى تنقلاته بين المذاهب تنقلا جديدا بين المحور والحلفاء ، فليلة يكون مع المحور ، يشرح بحماس النازية وفلسفتها العنصرية متابعا جذورها إلى أعماق أعماق الجنس الآرى . وليلة يكون مع الحلفاء مؤيدا للديمقراطية ، منوها بشوراتها التاريخية وما أهدته إلى الإنسانية من مبادئ الحرية والمساواة والإخاء . وقد اشترى سيارة فوردمان طراز حديث ليؤمن نفسه ضد الظلام وجنود الحلفاء الذين أخذوا يزحمون الشوارع . وتشكّى قائلا :

— الويسكى يخفى ، والحشيش ترتفع أسعاره ، والنساء بصفة عامة يفضلن الجنود على المدنيين ، فأى ميزة تبقى لنا كأمة غير محاربة ؟!

فقال له إسماعيل :

— سوف تنشب الحرب فوق أرضنا ..

ولكنه قال ضاحكا :

— كلما اقترب الموت انفجرت لذة الحياة ..

وطاهر عبيد تحسنت أحواله المادية ، ودعى أكثر من مرة لتأليف أغاني للأفلام . وانتقلت حماته إلى رحمة الله فى أعقاب إصابتها بالتهاب رئوى ، فجدد أثاث الحجرتين بأن جعل إحدهما للمعيشة والسفرة والأخرى مكتبة . وقال له صادق مرة :

— لو زرت فيللا بين السرايات ومعلك درية لغزّت البنت القلوب المغلقة !
فقال طاهر بإشفاق :

— أخاف ألا تُستقبل درية بما هي أهل له من المودة فيتغير قلبي من ناحية
والذى اللذين ما زلت أحبهما ..

— ولكن للحفيد سحرا لا يقاوم ..
فقال طاهر ضاحكا :

— إنك لا تعرف والذى كما أعرفهما ..

وفي تلك الفترة أفلعت رقيقة عن ممارسة عملها وقنعت راضية بوظيفة ست
البيت ، ولكنها حافظت بمهارة وإصرار على رشاقها ، وبدافع من حبها واعتزازها
بزوجها عودت نفسها على النظر في الجريدة والمجلة .

أما صادق صفوان فله حكاية لم نطلع على أسرارها إلا حين تمت فصولها .
يبدو لنا دائما رجلا مجدا ذا جاذبية خاصة لربائنه بما طبع عليه من حلاوة في الخلق
والخلق . أجل إن مشكلة إحسان تزمن مع الأيام وهو يحاول مسايرتها دون إخفاء
لكدره وهمه . غير أنه في ذات ليلة قرر أن ييوح لنا بسرّه فقال :

— الحرب شر لا شك في ذلك ولكنها لا تخلو من خير !
ودهشنا لقوله ، وتساءل طاهر مداعبا :

— هل تتفلسف على آخر الزمن ؟

أما الحكاية فترجع بدايتها إلى اليوم الذى تولى فيه هتلر الحكم . وفي إحدى
زياراته لرأفت باشا الزين قال الباشا :

— الحرب قادمة آجلا أو عاجلا .
فقال صادق :

— ربنا فوق الكل ..

فقال الباشا :

— عليك أن تستعد لها كما يستعد الحلفاء ..

— أنا يا سعادة الباشا ؟!

— الإبرة التى تبيعها اليوم بليم ستختفى وتجد من يشتريها بخمسة قروش ، هل فكرت فى ذلك ؟ . التجارة ليست مجرد شراء وبيع ولكنها فكر وتخطيط ..

فنظر إلى قريه التاجر الأكبر بإكبار وذهول ، فقال الباشا :

— خزن كل سلعة مستوردة .. أسلحة الحلاقة .. الأقلام .. النقائات ..

الحلوى .. كل شئ .. اشترِ التراب لتبيعه ذهباً ..

هذه هى الحكاية . ونظرنا إليه مستطلعين فقال :

— خصصت حجرة فى شقتى للخرين .. وابتعت بكل قرش يفيض عن

ضروريات الحياة الأشياء الرخيصة الثمينة ..

فقال طاهر ضاحكا :

— هكذا تكون الثروات حقاً !

فقال صادق بارتياح :

— الحمد لله رب العالمين ..

وأخذت تنهمر عليه النقود . واحتل الزين باشا فى قلبه المنزلة الثانية بعد الله . وجدد أثاث شقته ، وبرأ أمه فى شيخوختها فوالاها بالرعاية وزودها بما تحتاج إليه من مأكّل وملبس ، ولدى أقل شكوى صحية يبيئها بأطباء وسط المدينة متجاوزا أطباء الحى . ولكن ذلك كله لم يخفف من كدره من حياته الزوجية ، بل لعله ضاعفه وصعد به إلى ذروة التوتر . وقال له حمادة الحلوانى :

— مثلك يُعذر إذا سعى إلى امرأة ..

فقال بحزم :

— ليس لى فى الحرام رغبة ..

وهو على تلك الحال جاءته لىلى حسن لشراء بعض الأدوات المدرسية . سمراء ممتلئة العود ، ساخنة النظرة ، مثيرة ، محتشمة الزى . أثارت اهتمامه وغرائزه ، ولم يكن ممن يحسنون إخفاء الباطن ففضحته . وبغزوتها المبالغتة شغلت وعيه طوال الوقت وهو لا يحلم برؤيتها ثانية . لكنها جاءتة بعد أيام لتستبضع . فرح بها فرحة انتزعته من تقاليده فقال لها :

— لست من العباسية فيما أعتقد ؟

فتساءلت فى دعاية :

— حضرتك شيخ حارة ؟

— أعرف الجميع سواء فى الدكان أو فى الطريق ..

فقالت وكأنها تعرّفه بنفسها :

— نحن من الوافدين حديثا ، نسكن فى عمارة عم خليل لقربها من المدرسة

التي أعمل بها ..

فقال منتشيا بسروره :

— تشرفنا ..

— العباسية حى خطر لوجود الثكنات الإنجليزية بها .

— الله هو الحافظ ..

شعر بأنه يوجد قبول واستجابة . وقص علينا القصة . وفكرنا فى الأمر طويلا

غير أن حمادة كان أجراً فقال له :

— ظروفيك سيئة وأنت تُعذّر إذا تزوجت مرة أخرى ..

— فقال دون أن يفلح فى إخفاء ارتياحه :

— ولكن لإحسان منزلة لا تعدلها منزلة .

فقال حمادة :

— احتفظ بها معززة مكرمة مع ابنها ، وهى ستفهم وتقدر وتَعذر .
وجاءته أخيرا بصحبة امرأة فى الحلقة السادسة حدس لتوه أنها أمها ، فقال لها
يجرها للحديث :

— مبارك ، إنهم ينون مخبأ قريبا من عمار تكم ..

فقال ضاحكة :

— نعم ، على أى حال وبصرف النظر عن الثكنات فالعباسية حى جميل .
فقال مجربا نفسه فى الغزل :

— العباسية تشرفت بأجمل بنت فيها ..

ابتسمت المرأة فى سداجة ودارت ليلى ابتسامة وانتهى الموقف على خير .
ويقص علينا ما يحدث ووجهه يتألق بالسعادة فلم نشك فى أنه وقع فى الهوى
من جديد ، إنه شاب طيب ، وهيات أن يعرف امرأة إلا عن سبيل الزواج .
واقنعنا تماما أنه لا مفر من الزواج . وفى الحال كلفنا أهل الخبرة بالتحرى عن
الأسرة الجديدة بعمارة عم خليل . وجاءت المعلومات تقول : إن الفتاة اسمها ليلى
حسن ، فى الثلاثين من عمرها ، أى تماثل صادق فى سنه ، مدرّسة بمدرسة
العباسية الابتدائية ، وأمها ست عيشة أرمل ذات معاش بسيط ، أسرة على قد
حالتها . لعلها لم تكن لترضى بالزواج من خردواقي لولا حسن سمعته وثرأؤه
ووسامته بالإضافة إلى حصوله على البكالوريا .

ومضى فى حلمه إلى غايته فرنا إلى عمارة جديدة تشطب على الجانب الآخر
من الطريق العام أمام دكانه فقرر أن يحجز بها شقة للعروس الجديدة إن وفق فى
مشروعه . وإذن فقد صدقت نيته وتوكل على الله .

ومع الحرب هبت على حينارياح التغير لامتعة ولا سارة . شقَّ شارع طويل

عريض بين شارع العباسية وشارع الملكة ناظلي ، واختفى في الحقل القديم الذي كنا بفضلله نتمتع بجمال الريف بالإضافة إلى حضارة المدينة . ورحل عم إبراهيم وسكت نعيم الساقية واختفت الخضرة المنعشة جارفة معها الشفافية والعذوبة والروائح الذكية ، وحلت محلها على جانبي الطريق الجديد خرابات قاحلة سرعان ما استغلت لبيع نفايات الجيش البريطاني من السيارات الكهنة وتلال المطاط والأدوات الميكانيكية والبطاطين المستهلكة . لم نعد نسمع إلا الدق وضوضاء الشارين وشجار المتساومين ، ولا نرى إلا غبار عربات النقل . وفقد الشارع العمومي هدهده ، وجرت فوق سطحه عشرات اللوريات ، وتضاعف عدد التراقات واكتظ بعمال الأورنس ، وانتشر الجنود حتى في المقاهي البلدى . وبيعت جملة من سرايات العباسية الشرقية المطلة على الشارع العمومي ، وشرع في إقامة عمائر شاهقة في مكانها وأخذ يتأيل في الأفق منظر حى جديد مكتظ بالسكان والدكاكين ، ويطوى في غمزه المتصاعد الحى القديم بسراياته المعدودة وبيوته الصغيرة الأنيقة وسكانه المعدودين الذين تربط بينهم روابط الأسرة الكبيرة الواحدة . وفي أثناء ذلك ، قبيل شروع صادق في زواجه الثانى وفي خلاله ، وثب صديقنا وثبة أعلنت للملأ ثرائه ، فقد استأجر في العمارة الجديدة التى تشطب أمامه دكاكين كبيرين فى أسفلها ، وجعل منهما دكانا كبيرا ، وهياه بالديكورات والتجميل ، وانتقل إليه ، فلم يعيد الخردواقي الوحيد ولكن الخردواقي الفريد الذى يضاهى فى منظره ومعروضاته محال وسط المدينة . ونقش أعلى مدخله على لوحة طويلة عريضة اسم « النادى » يقرأ نهارا بالخط الكوفى وليلا بالمصاييح الكهربائية ، وجلس وراء منصة الحساب مستخدما للعمل موظفا شابا يدعى رشدى كامل . وبطيئته المعهودة قال لنا :

— حلمى يتحقق بفضل الله أولا والزين باشا ثانيا .

فقال طاهر مداعبا :

— وهتلر ثالثا !

ومضى ينفذ ما اعتزمه ، ولعل طاهر كان الوحيد الذى أبدى شبه معارضة حين قال :

— أعتقد أنه يكفى الإنسان زوجة واحدة إن حرص حقا على راحة باله .

فقال صادق :

— إحسان عاقلة .

فقال طاهر :

— النساء يفكرن بقلوبهن .

وأفضى صادق بنواياه إلى أمه ست زهرانة فارتبكت المرأة وقالت له :

— لم يحدث هذا فى أسرنا قط .

ولما بشها شكواه فى شيء من الصراحة دعت له بالتوفيق . ولكنه لقى قهرا فى مصارحة إحسان حتى تمنى لو كانت على غير هذا المثال من الطيبة والطاعة والنشاط رغم بدانتها المتنامية . وطبعاً هو لم يواجهها إلا بعد أن اطمأن إلى موافقة ليلي وأمها . بل إن ست عيشة لم تبارك رغبته إلا بعد أن أقنعها بأنه لم يقدم على خطبة ابنتها إلا بسبب مرض زوجه الأولى التى يتعهد بالاحتفاظ بها رغم كل شيء . وعند ذاك قالت له حماته الجديدة : « بارك الله فيك فنحن لا نحب أن يقال عنا إننا نخطف الأزواج من زوجاتهم » . ورضى صادق بصفة عامة ولو أنه تمنى لو كانت تصرفه ببضعة أعوام ، كما أنه تضايق بعض الشيء لما عرف أنه كان لها خطيب سابق انتهت خطبته بالفسخ ، ولكنه فسر ذلك بفقر الأسرة وعجزها عن تجهيز العروس بما يليق . ومما أخبرنا به أيضا أن أمه — ست زهرانة — صارحته بأنها لا تطمن كل الاطمئنان للموظفات ، وكيف أن زبيدة هاتم حرم الزين باشا

سخرت من تلك الأفكار البالية قائلة إن بنات الأسر الكريمة يتعلمن اليوم ويتوظفن كالرجال ولا غبار على ذلك . المهم أنه خلا إلى إحسان وقال لها وهو يشعر بحرج لم يشعر بمثله من قبل :

— إحسان ، علم الله أنك أعز مخلوق في حياتي ..

والغريب أنها حدجته بنظرة قلقه كأنما حدس قلبها ما ينوى قوله ..

— لم تعد لي حيلة ولا صبر ، ومن الخير لكلينا أن أتزوج ..

توقع غضبة لو وقعت لكانت الأولى في حياتهما غير القصيرة . ألقت عليه نظرة سريعة ثم غضت بصرها كالخجلة أو الخائفة ، ثم أخفت وجهها في راحتها . — سيظل هذا البيت بيتك وبيت أولادك ولن يفرق بيننا شيء ..

وكأنما لم تجد إلا الصمت لتعاقبه به .

ولما رجع إلى شقته مساء عقب سهرته في قشتم لم يجد إلا الخادمة التي أخبرته أن الست أخذت إبراهيم وصبرى وذهبت إلى بيت والدها بشارع أبو خودة . ولم يصبر إلى الصباح فذهب إلى أبو خودة ليجد إبراهيم أفندى الوالى وست فاطمة في انتظاره . أى حزن وجد ! . قال إبراهيم أفندى :

— إحسان خير بناتي ولكنها سيئة الحظ .

فقال صادق ليلطف من حرارة الجو :

— هي خير النساء جميعا .

وشرح همه بالتفصيل الضرورى . وعلى أى حال رجعت إحسان إلى بيتها في اليوم التالى بصحبة صادق . أما هو فبدأ من فوره في تنفيذ ما عقد العزم عليه . وعرفنا الأخبار في توالدها وتتابعها . فقد صارحته ست عيشة بأن ما لديهم من نقود يكفى بالكاد لتجهيز ثياب العروس ، فتعهد بتأثيث الشقة الجديدة . وطالبت ليلي بأن تكون الدخلة في العطلة الصيفية ، واعتذر هو عن عدم إقامة

أى احتفال احتراماً لمشاعر زوجه الأولى . وهنا قال طاهر عبيد :

— عندنا كازينو العائلات بالظاهر ..

وقد كان . وتم التعرف بيننا وبين ليلي . وتناولنا عشاء طيباً ، وتجول بهما حمادة في سيارته في خلوات القاهرة ثم رجع بهما إلى العش الجديد . هكذا وجدت حيوية صديقنا المتدين العفيف إشباعاً مشروعا . وتمتع صديقنا بعروسه في الليالي المظلمة على صراخ زمارات الإنذار ودوى المدافع المضادة . وفي عز الشتاء بغتنا يوم ٤ فبراير بدباباته وعودة الوفد المفاجئة إلى الحكم . ارتفعت الأصوات في قشمر منا ومن سائر الزبائن وتضاربت الأقوال . الناس سعداء لعودة الوفد ولكنهم واجمون أمام ما يقال من أنه جاء على دبابات الإنجليز . ولم يتردد طاهر عن أن يقول ساخراً :

— ألا ترون أن جميع رجالنا خونة ؟

وقال صادق :

— من العسير جداً أن يتهم إنسان مصطفى النحاس بالخيانة ، ولكنى لا أدرى

ماذا أقول ..

وقال حمادة الحلواني :

— كل وزارة تحب فبأمر الإنجليز ، فلماذا تتكدر إذا توافق أمرهم مع رغبة

الشعب ؟

أما إسماعيل قدرى فلم يفتّر حماسه ولا ساوره شك . لقد شك في كل شيء إلا أنه . يبدو أمام الأفكار كالفيلسوف ، ولكنه أمام الوفد مؤمن بسيط من عامة

ب المتحمس ، وقال بثقة :

— لا تشكوا في الوفد وشكوا ما شئتم فيما يقال !

و ذات ليلة دهمتنا أول غارة حقيقية . استيقظنا على زلزلة القنابل .

هذه انفجارات فى الأرض تخفق بها بيوتنا وليست طلقات مدافع مضادة فى الهواء . إنه الموت يهدر من حولنا . وهرعنا لآ نلوى على شىء إلى الخائى . وفى مخبأ واحد اجتمع إسماعيل وأمه و طاهر ورثيفة ودريه ، وصادق وعروسه ، وإحسان وإبراهيم وصبرى وست زهرانة . حفر الرعب حفائره فى صفحات وجوهنا . وتمثل لنا الموت فى قربه وعنفه وصوته . صوت النساء وصرخ الصغار وتجمعنا نحن بالحرس . ولم تستمر الغارة أكثر من خمس دقائق وربما أقل ولكننا كنا كالعاجز عن التنفس لغوصه تحت سطح الماء . ولدى أول نفس نتنفسه فى استرخاء وإعياء قال طاهر بصوت متهدج :

— هل يقضى علينا بأن نعيش فى الخيام ؟!

وبعودتى إلى الواقع . ورجوعى إلى الوعى ، وجدتنى أعيش بين ليلى وإحسان . كلتاهما ترتديان قميص النوم ومتلفتان بروب ، الشعر مشعث والوجه شاحب . وعلى حين تبدت ليلى جميلة رغم كل شىء فإن إحسان ذاب جماله فى برميل من الدهن . وخرج صادق من هول الغارة ليجد نفسه فى حيرة ممزقة بين أفراد أسرته المتباعدين . ذهب وجاء وجاء وذهب . وتعلق به إبراهيم وصبرى ولاح فى وجهه الشاحب الارتباك والحرج . ولم تخلصه من ورطته إلا زمارة الأمان التى دوت فى سكون الهزيع الأخير من الليل لترد الناس من الاحتضار إلى الحياة مرة أخرى . وقسم صادق وقته بين أسرته ؛ يقضى يومين فى شقة ليلى و٥٠ مين فى شقة إحسان ، وكان عليه أن ينتظر طويلا حتى تخلو حياته العائلية من توترات الغيرة . وأخذ ميزان الحرب يميل لصالح الحلفاء ، ومضت أشباح الغارات فى التلاشى ، وكالعادة أقيلت وزارة الوفد ، واستقرت حياتنا فى قشتمر بين الراحة والأسى ، وأطل جيل الأبناء إبراهيم وصبرى ودريه على البلوغ والمراهقة ، ونوه صادق وطاهر الفخوران بتفوق الذرية فى الدراسة وولعها

بالثقافة ، ولكن ..

— إنهم يشهدون الحياة السياسية في تفسخها ، ولا انتفاء لهم لحزب من الأحزاب .

— لديهم تجمعات جديدة كالإخوان والماركسيين ومصر الفتاة ..

— ألسنتهم طويلة وسخريتهم مريرة ..

ووضح لنا أن صادق يبدل همته ليخلق من ابنه رجلين من رجال الأعمال ، أما طاهر فكان يترك درية لتموها الذاتي في استقلال تام قانعا بالمشاهدة والمساعدة عند الحاجة . وما زال نجاح الصديقين المميزين يتأكد في الثراء والفن ، وحتى إسماعيل فاز بترقية إلى الدرجة السابعة في حكم الوفد . غير أن إسماعيل كان يدخر لنا مفاجأة بدت في وقتها آية في الغرابة . فذات ليلة أشار إليه حمادة الحلواني وقال ضاحكا :

— من سيارتي وفي شارع الجبلية رأيت هذا الأفندي الداهية مع امرأة يتناجيان !

وصوبت إليه الأنظار في اتهام مشوب بالاستطلاع . وقال طاهر عبيد :

— لا بد من التصرف بعد زوال غابة التين الشوكي ..

وقال حمادة ضاحكا :

— أراهن أنه اختلس المصاحف الأثرية من دار الكتب وباعها ..

وسأله صادق مؤنبا :

— هل تمارس حياة سرية من وراء ظهورنا ؟

فقال إسماعيل قدرى كالمعتذر :

— انتظرت حتى تكتمل الرواية لأعرف كيف أحكيها لكم ، إنها أرملة وأم

عجوز ، سكنتا في العمارة الصغيرة القائمة أمام بيتي بشارع حسن عيد ..

فقال طاهر :

— ولكن ليس من عادتك مغازلة السيدات !

فقال إسماعيل ضاحكا :

— هي التي بدأت ..

— وماذا فعلت ؟

— استجبت !

فسأله صادق :

— هل عرفت الحب أخيرا يعد أن تبوأ عز الرجولة ؟

— لا مجال للمبالغة ، وكل امرأة لا تخلو من أنوثة !

وسأله طاهر :

— وماذا تفعل وليس بين يديك غابة تين شوكي ؟

— لا .. لا .. إنها سيدة محترمة ..

— والحل ؟

— بالإشارة التقينا وذهبنا إلى الجبلية ، هي مقبولة من نواح كثيرة ، أسمن

قليلا مما ينبغي ، أغمق في سمرتها مما أود ، في أنفها فطس خفيف ، عيناها نجلاوان ،

حديثها يقطع بأنها تبحث عن الشرع ، وفي تقديرى أنها في الأربعين من عمرها ..

وتريث قليلا ثم واصل حديثه :

— أفهمتها بصراحة أنني على الحديدية !

فقال حمادة :

— أحسنت ، ربما رضيت بعلاقة غير شرعية حتى يفرجها ربا !

— لا .. ليست من هذا النوع .. ولم أقصر في إعلان إعجابى بها .

— مشكلة !

— كلا .. صارحتنى بأنها غنية ، وأن ما يهمها حقا الأخلاق والإخلاص ..
فقال صادق بسرور :
— صبر ونال .

وفرحنا له ، واعتبرنا هذه الزيجة المتوقعة أقل ما يستحقه الرجل الذى بشرت
شخصيته بأعظم النهايات . ولكن ست فتحة غسل والدته لم تمتد بها العمر
لتشهد استقراره . توفيت فجأة وهى تحادثه ودون أى عناء كأنها مصباح خمدت
بطاريته . وكان إسماعيل قد ألف الحياة المنظمة فى كنفها فاستقبل وحدته بكدر
وانزعاج . وتكرر اللقاء بينه وبين ست تفيدة فتوطدت أواصر المحبة بينهما .
وقال لنا مرة :

— من المؤلم ألا يشارك الرجل فى إعداد بيته .

فقال له صادق صفوان مشجعا :

— الزواج أهم من كافة طقوسه .

وعرف أن دخلها لا يقل عن مائة جنيه شهريا ففاق الواقع ما تخيلناه ، بالإضافة
إلى مدخر من المال لا يستهان به . ولا شك أن المرأة أحبته ورغبت مخلصه فى
الزواج منه . وتم الاتفاق على شراء حجرة نوم جديدة ، والاكفاء بحجرئى
الاستقبال والسفرة القديمتين . وفى أثناء الإعداد توفيت أم تفيدة ، وقال له طاهر
مازحا :

— إنى أتمك بقتلها ليخلو لك الجو وسأطالب بتشريح الجثة ..

وأعد كل شئ ، وتأجلت الدخلة إلى ما بعد الأربعين ، ورئى ألا يقام لها أى
احتفال فارتاح لذلك إسماعيل زهدا منه فى حفل لا يستطيع أن ينفق عليه مليما من
جيبه . وترك إسماعيل البيت الذى ولد فيه ليستقر فى شقته الجميلة مستقبلا حياته
الزوجية . ومن أول يوم قال لنا :

— أود أن يعفينا الله من الإنجاب ..

ولكن لم يكدهم شهر حتى قال لنا :

— الولية حبلت ، وخاب أملى فى أن تكون قد فانت سن الحبل ..

ويتقدم الزمن فيتمطى فوق كواهلنا كما تسقط حبات الرمل المتطايرة فوق التلال . وتنتهى الحرب وتنفجر أول قبيلتين ذريتين مُنذرتين بمولد عالم جديد مليء بالعرب . وتتطلع مصر إلى حياة جديدة . ويُعد صادق بين الأغنياء ولكن حياته لم تخل من همٍّ . واضح أنه راض جدا من الناحية الجنسية ، وأن هذه النقطة بالذات هى مدخله إلى الإذعان والصبر . وشكا لنا همهم قائلا :

— يبدو أن لىلى عاقر ، وهذا يُحدث لها سخطا دفيناً .

فسئل :

— ألم تستشر طبيبا ؟

— لما طال الزمن استشرنا فأكد الظنون وازدادت غمًا ..

وبالتالى لم يستطع أن يدرأ عن صفوه القلق . وأراد أن يهون الأمر عليها فقال لها إنه لا أهمية لذلك . ولكنها أجابته — وبجدة — أنه أب ولا يهمه بعد ذلك شيء . وأعترف لنا أنها رغم أنوثتها المفرطة فهى حادة المزاج سريعة الانفعال قاسية اللسان . قال :

— كأنها تمارس مهنة التدريس فى البيت أيضا ..

وبانت تغار من إحسان وتتصور أنه يتلهف على زيارة بيتها ليسعد بقاء إبراهيم وصبرى .

— الحق أننى أتجنب الصدام ما وسعنى ذلك ..

وأسفنا لهذه الأخبار ، وعجبنا لحظ صديقنا الطيب الذى لا يدرى كيف ينعم براحة البال . وقال لنا :

— إنها من النوع الذى يجب أن يفرض شخصيته على من حوله ..
ولما استمرت الحال أو ازدادت سوءا اتهمها بأنها تشعر بأنها متقدمة عليه فى
التعليم ، وضايقه ذلك فقال :
— إنها متعلمة ولكنها ضيقة الأفق ، لا ثقافة لها ، وجاهلة بالشئون العامة ،
لا تعرف الفرق بين النحاس وصدقي ، ولكنه الغرور ..
أدركنا أنه أساء الاختيار ، وتصورنا أنها واثقة من رغبته فيها فهى تستغل ذلك
استغلالا سيئا يدل على سوء التقدير والتصرف . ولكن صاحبنا لم ييأس ، فكان
يقول لنا :

— الأيام كفيلة بإصلاح الأخطاء ..
ولكنه ينبسط ليلة ويكفهر ليلة . ويضيق صدره فيروح عن نفسه قائلا :
— هى أحسن النساء لو هذبت طبعها ، لم أحدثكم عن إسرافها ، أنفق عليها
أضعاف ما أنفق على بيتى الآخر بما فيه التزامات الأولاد ، فى بيتها طاهية ، تريد
شراء كل ما يهرها فى السوق ، تحب أن تزور وأن تُزار ، إذا دعوتها بلطف أن
تستقر فى بيتها اهتمتنى بأنى أريد أن أحبسها وأننى رجل بعيد عن العصر ، أنا لا
يهمنى المصروف ، وأرحب بأى مساعدة تقدمها لأمها ، ولكننى لا أشعر بعد
ذلك كله بأننى أستحق ولو كلمة شكر ..

وسأله طاهر :

— أما زلت تحبها ؟

فأجاب باستسلام :

— الحقيقة أنى أحبها .

فقال حمادة الحلوانى :

— أنت تاجر خبير ماهر ولكنك رجل بيت طيب ، لم تنكشف طبيعتك

مع إحسان هاتم لأنها أطيب منك ، ولكن الأمر مختلف مع هذه السيدة ..
وسأله إسماعيل :

— ألا تتذكر ما قدمته لها عند الزواج ؟

— نسي كل شيء ، وطبعاً لا أفكر أبداً في تذكيرها به .

فقال حمادة ساخراً :

— المرأة متكبرة ، جاحدة ، لا فرق في ذلك بين سيدة وبغى ..

ويعتبر إقامته في بيت إحسان استراحة بين المتاعب . اعتادت إحسان الحياة الجديدة وربما وجدت فيها راحة من نوع معين يناسبها ، إن تكن ثمة متاعب في بيت إحسان فهي تحوم حول إبراهيم وصبرى ، مع تفوقهما في المرحلة الثانوية يزدادان استقلالاً . وانطلاقاً بعيداً عن البيت . ويتساءل هو ويتساءل ، ويتذكر أيامه وأيامنا حين مرهقتنا ويسأل الله السلامة . ودعاهما لمصاحبتة في صلاة الجمعة في جامع سيدى الكردى فلبنى صبرى وتهرب إبراهيم . وتساءل أيضاً مَنْ سيخلفه في عمله أو يعاونه فيه ولكن المال لم يسحرهما ، ولا أسعدهما أن يكون رأفت باشا الزين قريهما ، وكل يوم يمضى يتضح معه أن إبراهيم يرفض كل شيء ؛ كل حزب وكل هيئة ، وأنه لا يعفى أحداً من اتهامه ، فماذا يريد ؟ . على الأقل صبرى يعيد للدرجة ما سيرة أبيه في التدين ، فثمة زمام يمكن أن يقوده منه . وقال له إسماعيل :

— الولدان ممتازان فاقنع بذلك واسعد .

فتمتم بحرارة :

— الحمد لله .

ولكن ثمة مشكلة أخرى اعترضت أمنه في بيته الأول تتعلق بصحة إحسان . لاحظ أن بدانتها تمضى ببطء وثبات دون توقف ، وأنها تنتفخ بصورة لا تغيب

عن عين أحد ، بل أخذ نشاطها يقل ، وحركتها تثقل ، وأحيانا تجلس فلا تقوم إلا بمعاونة الخادمة ، هذا بالرغم من أنها أبعد ما تكون عن الإفراط في الطعام .
ويقول صادق :

— ليلى تأكل ضعفها ولكنها لم تفقد رشاقتها ..

وأخيرا رأى أن يعرضها على طبيب فافتشف بها خللا في الغدد ووصف لها الدواء ، ولكن الدواء لم يجِد ، واتبعت نظاما قاسيا في الغذاء دون ثمرة ، وساورها القلق على نفسها ، وشاركها قلقها من قلب بات يقدرها أكثر من الأول ، ولم يرَ بدأ من استخدام طاهية لها مسلماً أمره إلى الله . وفي تلك الأيام وسَّع من نشاطه المالى فاشترى البيت الذى ولد فيه بين الجنان وبيت إسماعيل قدرى بشارع حسن عيد ، وهدمهما ليشيد مكانهما عمارتين جديدتين كانتا أول عمارتين حديثتين تقومان في العباسية الغربية ، ويسهمان في زيادة سكان العباسية والقضاء على ما يتبقى لها من هدوء تقليدى .

حمادة الحلوانى يواصل حياته العريضة ولا يكف عن إلقاء أحاديثه الممتعة التى تمثل جولاته بين المعارف متحررا من أى التزام . وكَم أشفقنا من أن يخطفه الثراء منا فيأنس إلى أناس آخرين وأجواء جديدة ويزهد في العباسية وقشتمر ، ولكنه لم يتخلف ليلة عن قشتمر وأصدقاء طفولته ؛ ولأنه الأعزب الوحيد تعلق قلبه بحرارة بالصدقة وذكريات الماضى ، ولم يحظ بأى تعويض لدى أخيه توفيق للبرود المتبادل بينهما منذ الصغر ، واضطر كذلك للابتعاد عن شقيقته المحبوبة لما ترامى إليه من أن زوجها يتحدث عنه بازدرأ باعتباره حشاشا مدمنا ، فلم يبق لقلبه من مجال يمارس فيه عواطفه سوى قشتمر وسُمَّاره القدامى . وقد ماتت أمه عفيفة هانم بدر الدين فيما يشبه المغامرة ، إذ كانت أسرته أول أسرة في العباسية تركب في بعض حجراتها أجهزة تكييف الهواء . وفي يوم اشتد قيظه جلست الهانم

أمام التيار البارد تجفف عرقها السائل ، فأصابتها التهاب رئوى ، ولما عم الحزن بالبنسلين — الساحر الجديد — تبين أنه يحدث بها حساسية شديدة ففاضت روحها فجأة . وتلقى حمادة حادث الوفاة — فى منتصف الحلقة الرابعة كان — برزانة لا تتناسب مع حبه القديم لأمه . ولما كان أخوه توفيق يقيم فى المعادى وأخته أفكار فى الزمالك فقد وجد نفسه يبيت أياما فى قلعة مكتظة بالخدم والحشم ، وقد يمر أسبوع كامل لا يطأها بقدم ، فمن هنا نشأت فكرة بيع السراى . وتحركت غريزة الملكية والثراء لدى صادق ولكنه خاف أن يتلعب الثمن المطلوب — مائتا ألف من الجنيهات — سيولته المالية ، فضلا عن أنه لا يشتري مثل هذه السراى إلا ليحولها إلى عمائر وهو ما لا يتاح له الآن ، فاشترها عم حسنين صاحب الطابونة ، وهدمها وشرع فى إقامة أربع عمائر فى مكانها . كانت أول سراى داخل العباسية الشرقية تتحول إلى عمائر ، وتجذب فيما بعد إلى سكانها أناسا ما كانوا يحملون بالوجود فى العباسية الشرقية إلا كسياح أو عشاق متسللين . ويزداد ثراء حمادة بنصيبه من ثمن السراى وبما ورثه عن أمه وهو ما يقارب خمسين ألفا من الجنيهات . الثراء عادة من عاداته اليومية يكاد يفقد سحره ، ونطلق عليه عادة : البوق الذى يذيع كل رأى دون أن يكون له رأى . وهو دائما وأبدا القارئ السامع المشاهد الفاسق الشريب الحشاش . ولكن يغلب عليه الحشيش فيلوح فى ثقل نظرتة وبطء حركته وشدة استهائه . مرة قال له صادق :

— يا بختك ، أنت أسعد الجميع وأصفاهم بالا ..
 فحرك رأسه معترضا ولكنه لم ينس بكلمة . وإذا به يقول لنا ذات ليلة :
 — عندما أستيقظ صباحا أتساءل : وماذا بعد ذلك ؟!
 فقال له طاهر عبيد :

— إذا أتحنفنا المطرب بنغمة حلوة هتفننا له : أعد .. أعد ..

فقال بهدوء :

— أحيانا لا يرحب القلب بالإعادة !

فسأله صادق باهتمام :

— هل بدأ الملل يناوشك ؟

فأجاب بسرعة كأنما يدفع عن نفسه تهمة :

— غير صحيح ، ما هي إلا حال تمر ، ولكن تؤرقني مسألة !

— مسألة ؟

— إن الحياة أخذ وعطاء ، أما أنا فأأخذ فقط .

فقال طاهر ساخرا :

— ما دام يوجد من يعطى ولا يأخذ فلا بأس أن يوجد من يأخذ ولا يعطى ..

فقال حمادة بامتعاض :

— نحن نتقدم بسرعة في ذلك الطريق المجهول المسمى بالعمر ..

وقال له صادق مواسيا :

— ثم إنك تعطى كما تأخذ وأكثر ، لا تنس ما يأخذه منك المهريون والقوادون

والمومسات ومالك العوامة ومالك شقة خان الخليلي والعديد من البقالين

والجزارين وباعة الملابس إلخ إلخ ... لا يوجد من يأخذ دون أن يعطى ..

ونظر نحو صادق متشككا ترى أيجد أم يسخر ، وإذا به يصيح :

— إليكم أول شعرة بيضاء في رعوس شلتنا المصونة ..

إنه يشير إلى رأس صادق ، وهذا يقطب ويقول محتجا :

— كلا .. مستحيل ..

ودققنا النظر حتى فرزنا شعرة في سالفه تختلف عن الشعر الأسود الغزير

— ٩٥ —

الناعم ، وقام صادق يتفحص الموضع المتهم في مرآة من مرايا الجدار ، ثم رجع مبتسما ابتسامة صفراء وهو يقول :

— أوى شاب وهو فى عز شبابه !

وتساءل طاهر باسم :

— هل تتذكرون كيف التقينا بمدرسة البراموى الأولى ؟ كأنما حدث ذلك

صباح اليوم !

فقال حمادة بلا مناسبة :

— قشتمر أيضا طعن فى السن وشاخ ، يحتاج إلى طلاء وتجديد فى المقاعد والموائد ، وترميم فى دورة المياه ، وحديقته المتواضعة ممكن أن تضاهى حديقة كازينو العائلات فى نضارتها ..

فقال إسماعيل قدرى :

— قشتمر أحب إلى نفسى من ركس أو البوديجا ..

وتساءل حمادة بلا مناسبة مرة أخرى :

— هل حقا أن السعادة هى مطلب الإنسان الأخير ؟!

طاهر عبید يحرز النجاح تلو النجاح فى حياته الشعرية والصحافية وبهم بحب ابنته درية . الحق أنها جميلة جذابة ، رشيقة القوام وردية اللون واسعة العينين ذات شعر كستنائى غاية فى الثراء . كثيرا ما نراها فى ذهابها أو إيابها من المدرسة الثانوية . وبكل فخار يقول طاهر عنها :

— ذكية ، شجاعة فى أفكارها ، متفوقة فى العلوم والرياضة ، تريد أمها أن

تراها طبيباً ..

ويقول باسم :

— أسأل نفسى كثيرا : ألم تحب ؟! ، من يا ترى فتى أحلامها ؟!

ويسأل حمادة :

— ماذا تفعل لو صادفتها بصحبة شاب في شارع بين السرايات ؟

فيقهقه ويقول :

— أعمل مغفلا وكأننى لا أدرى ..

ويتساءل صادق صفوان :

— أليس علينا نحو أولادنا واجب التحذير والإرشاد ؟

— أمها تعرف واجبها تماما ..

وفى ذلك الوقت جمع طاهر قصائده وأصدرها فى ديوان عَنُونَه « زائرات الحديقة » . ونال كل منا هديته وهنأناه من صميم قلوبنا ، وقرر حمادة أن نحتفل بالمناسبة فى العوامة فى ليلة من ليالى العمر . ورحب زملاؤه — وفى مقدمتهم اليساريون — بالابراهيم ، فنشرت عنه المقالات ، وظهرت صورته فى المجلات . وكثيرا ما يثنى على رقيقة كسيت بيت ماهرة ، وأم يقظة ، وزوجة محبة مخلصه ذكية ، تعرف كيف تهىء لزوجها أسباب الراحة والسعادة . ولا شك أنها تغيرت أكثر من المتوقع ، فخف وزنها أكثر مما يجب ، وظهرت فى وجهها أمارات السن ، ولكنها ما تزال تُعد جميلة ورشيقة وفائقة النشاط .

ولكن هموم البلد غطت على همومنا الشخصية ، فانفجرت الخصومات الحزبية ، وامتألت الساحة بالخصام ، حتى قال طاهر لصديق :

— اعتبرنى مثل ابنك إبراهيم رافضا لكل هذا العك !

على أى حال أصبح فينا — بفضل طاهر — شخصية عامة ، تصعد بخطى وئيدة إلى النجومية الأدبية . أجل إن صادق صفوان يود أن يعتبر نفسه شخصية عامة بما هو تاجر معروف ومن ذوى الأملاك ، ولكن الفن يضفى على أهله هالة متفردة . ترى ألم يؤثر ذلك فى الأرملاوى باشا وحرمة ؟ ، لم ييدر منهما

ما يشير بذلك . وقد أحيل الباشا إلى المعاش وفتح عيادة للتحاليل الطبية في وسط المدينة ، وكل الظواهر تقطع بأنه نسي ابنه تماماً . أما طاهر فبالإضافة إلى الشعر والترجمة راح يكتب مقالة ساخرة أسبوعية كسبت له المزيد من القراء . وصار إسماعيل قدرى أبا إذ أنجبت له تفيده « هبة الله » ، وكانت ولادة عسيرة ، وتمت في المستشفى اليوناني . وفاجأنا ذات ليلة بقوله :

— سأدرس القانون من المنزل ..

وسررنا بذلك ، ووجدنا فيه ما يتناسب مع تفوقه القديم المتجدد مع الزمن . وسأله صادق :

— هل رجعت إلى هدفك القديم ؟

— نعم ، أنا لا أفرق بين الوطنية وبين الاشتغال بالسياسة ..

وانهمرت على ركن قشمر الأخبار المثيرة ؛ مصرع أحمد ماهر ، حرب فلسطين ، مصرع النقراشي ، الحرب بين إبراهيم عبد الهادي وبين الإخوان ، عودة الوفد ، حريق القاهرة . كتب علينا أن نعيش الهموم ونتجرع الأحزان ونكظم الغضب أو نزفره سمرّاً ونكاتاً ونوادر هزلية . ودخل الأولاد الجامعة وحتى هبة الله دخل الروضة . أما نحن فقد بلغنا الأربعين ، تلك العلامة المميزة ذات الطنين الأبدى . بلغ صادق قمة ثرائه . وحمادة الحلواني أدرك الغاية في معالجة الفراغ بالإفراط في الطعام والشراب والمخدر حتى فاق طاهر في وزنه . وبلغ طاهر منزلة فريدة في عالم القلم ، أما إسماعيل قدرى فقد حصل على الليسانس ، فاستقال من عمله في دار الكتب وعمل في مكتب محام وفدى . غير أن أهم الأحداث العائلية جرت في الحريم أو من خلال الأولاد .

ففى بيت صادق صفوان الأول تفاقم مرض إحسان حتى اضطرت إلى ملازمة الفراش عاجزة تماماً عن الحركة . وظل صادق يرعاها بكل ما في وسعه (قشمر)

ولا ينسى على حد قوله لنا :

— لم أعرف السعادة الحقيقية إلا بين يديها .

أما زوجه الثانية ليلي حسن فاستمرت في ملاعبتها الشاذة معه ، تحاوره بين قطبي اللذة والألم ، حتى تمزق تماما بين الرغبة في الإبقاء عليها وتمنى الخلاص منها . يقول ويعيد أنه بقدر ما وهبت من أنوثة بقدر ما أفعمت بسم العنف ، متكبرة على غير أساس كأنما هي المتفضلة ، وعند الانفعال ينث لسانها ألوانا كريهة من السموم ، وهو بدوره لم يعد يسكت فعلمته السب وما يندم على قوله أحيانا . ويقول له حمادة الحلواني :

— حظك في الزواج ليس كحظك في التجارة والمال ..

فيقول متحسرا :

— كانت بين يدى امرأة ولا كل النساء ، يا للخسارة يا إحسان !

واختل عقل ليلي أكثر بسبب عقمها فإذا بها تقول له ذات يوم :

— أؤمن لى حياتى بكتابة عمارة باسمى ..

يا للمصيبة ! .. إنها تفكر فيما بعد موته ، وتذكره بالنهاية التى لا يجب أن يُذكره أحد بها . واستاء وحنق ، وآمن بأنها لا تفكر إلا فى ماله ، والواقع أن المال وتوابعه هى ما يستأثر باهتمامها فى المقام الأول . وقال لها بصرامة :

— لله فى ذلك شريعة لا أحب أن أخرج منها ..

فصاحت به :

— اعترف بالحقيقة وهى أنك لا تحب إلا ابنك ..

وإذا نشب خلاف بينهما خاصمته ، فحتى التحية العابرة تنقطع ، وتتبعها المعاشرة ، ثم تقضى أكبر وقتها فى الخارج . فقال إسماعيل آسفا :

— هذا هو الجحيم .

وقال حمادة :

— إنها في حاجة إلى من يكبحها ..

فقال صادق :

— ضقت بالحياة ، فهل أطلقها ؟

وسادنا صمت لم يخرقه إلا حمادة ، قال :

— الحق أن البعد عن مثلها غنيمة !

وتساءل صادق :

— هل فعلتُ ما أستحق عليه عقاب الله ؟

تساءل بنبرة المطمئن إلى ورعه وتدينه ، وتذكرنا بعض تصرفاته التجارية مما

يُعد في نظر التجار شطارة وحلّالا ولكن الكثيرين يعتبرونه استغلالا ضارا

للناس ، ولكننا تغاضينا عن ذلك وفاء له ورحمة به . وقال إسماعيل قدرى :

— إذا أردت أن تسعد مع ليلي فأذعن لمشيئتها دون شرط ..

فقال بكبرياء :

— مستحيل ، إنها مثل النار لا تشيع ..

فقال الآخر بحزم :

— إذن فلا محيد عن الطلاق .

ووجد أنها لا تكف عن المطالبة بالعمارة ، فقال لها بهدوء خفيف :

— ليلي ، الحياة معك لا نطاق :

فصاحت :

— هذا ما يؤكده سوء حظي كل يوم .

فقال :

— إذن ليذهب كل منا إلى حال سبيله .

فصاحت بجنون :

— هذا أجمل ما سمعت منك .

وطلق صادق زوجه الثانية قبيل حريق القاهرة بأيام . وقد غرم لذلك غرامة لا يستهان بها ؛ ففازت بالأثاث ونفقة المتعة والنفقة المعتادة . ولكنه قال متعزيا :
— راحة البال أهم .

ولكنه أدرك في الوقت نفسه أنه رجع إلى عهد الحرمان . وإلى جانب ذلك لم تخل حياته من بوارق سعادة ، فقد تخرج إبراهيم وبعده صبرى في كلية الحقوق . والتحق إبراهيم بوظيفة في بنك مصر بعد امتحان أعلن عنه وبسعي أيضا من رأفت باشا الزين . أما صبرى فقد قبض عليه فيمن قبض عليهم من الإخوان . وأكد لنا صادق أن ابنه لم ينضم للجماعة ولكنه بدافع من تدينه تبرع لبناء جامع فعثر على اسمه في كشف المتبرعين وعُد من الإخوان . ورغم أنه أهين وضُرب ولكنه أفرج عنه ، ووقفت فترة الاعتقال عثرة في سبيل توظيفه ولو إلى حين . وثمة مفاجأة سارة سعدنا بها جميعا لا أسرة صادق وحدها . فقد صارح إبراهيم أباه برغبته في الزواج من درية كريمة صديقه طاهر . وسعد صادق بالخبر سعادة كادت تنسيه همومه ولو إلى حين ، وضمن له موافقة الأب على الأقل . وعند ذاك قال له إبراهيم :

— أنا ودريّة متفقان تماما ..

فأخذ صادق وتتم :

— لقد جاوزت حدودك يا إبراهيم .

فتساءل إبراهيم بدهشة :

— لماذا يا بابا ؟

وصمت صادق طاويا صدره على تقاليده . وجاءنا مساء منبسط الأسارير
على غير عادته في الأيام الأخيرة . ونظر إلى طاهر عبید بعينين باسنتين وقال :
— يا حضرة الشاعر ، محسوبك يطلب القرب منك ..
وهزنا الخبر هزة لطيفة ذكرتنا بمرور الأيام ، ولكن بأكبر قدر من الرفق وأقل
قدر من الأسى . أما طاهر فضحك عالیا وقال :
— لى الشرف يا معلم صادق ، من زمن وأنا أتوقع هذا الطلب ، ولكنك آخر
من يعلم ...

وعلت قهقهة فغطت على قرقرة النراجيل . والحق أن درية بنت ممتازة ،
وقد استهواها فن الرسم فدخلت مدرسة الفنون الجميلة رغم تفوقها في العلوم
والرياضة ، ورغم اعتراض مامتها . ولما أتمت دراستها ألحقها والدها بعمل في مجلة
الفكر . وهى تمائل إبراهيم في رفضه الواقع مع شيء من الميل إلى فلسفة اليسار ،
ولكن غرامها بفنها فاق كل شيء . وقال حمادة :
— من حقلك أن تفرح وسط أحزانك يا رجل يا طيب ، عليك أن تتزوج
أيضا فمثلك لا يطيق حياة العزوبية ..
فقال صادق :

— بل يجب أن أطمئن أولا على صبرى ..

وصبرى كان يسترد أنفاسه عقب محنته القاسية في الاعتقال . ولما سُد في
وجهه باب الوظائف اقترح إسماعيل قدرى على أبيه أن يعمل معه في مكتب
المحاماة ، ولكن صادق حسن لابه أن يفتح له فرعا في شارع عشرة ، تمهيدا ليحل
محله بعد ذلك في تجارته ، وحتى لا تُصَفَّى التجارة الناجحة بوفاته أو بتقاعدته .
وقرر صبرى أن يجرب نفسه في المشروع الجديد ، وفتح له والده الدكان في
شارع عشرة عند نهايته المطلة على ميدان العباسية . ثم احتفل صادق بدخلة

— ١٠٢ —

إبراهيم ودرية بعد أن خصص لهما شقة في عمارته الجديدة بشارع حسن عيد أمام مسكن إسماعيل قدرى . واستأجر طاهر شقة أخرى في نفس العمارة له ولرؤية وفرشها بأثاث جديد يناسب حالته الجديدة .

وفي أثناء تلك الفترة غير القصيرة تعرض حمادة الحلوانى لطوارق خفية متسللة من الهم ، صار بها في النهاية صاحب مشكلة . عانى ذلك الحشاش البدين طارئاً جديداً غير المحمول والذهول . قال لنا ذات ليلة :

— رغم كل ما يتهاى لى من أسباب الراحة فإننى أضيق بالحياة أحيانا لحد القرف !

ووجمنا ، وطال صمتنا ، حتى قطعه صادق بلهجته الوعظية قائلاً :

— أنت الوحيد بيننا الذى تحيا بلا عمل .

وقال له إسماعيل قدرى :

— حياتك يتمناها كل إنسان كحلم ، أما كواقع فهى شئ آخر .

فقال حمادة معانداً :

— دعونا من المحفوظات ، إنها حياة عظيمة ، ولكنها تحتاج إلى حلول جريئة ..

فقال طاهر عبيد :

— أفرغ طاقتك المختزنة في نشاط جديد ، ما رأيك في الرحلات ؟!

عز علينا أن نفقده ولو إلى حين ولكنه كان العلاج المتاح . وقرر الرجل أن يقوم برحلات متنوعة بادئاً بالداخل ؛ تنقل صيفاً بين مواقع الساحل الشمالى ، وزار شتاء الأقصر وأسوان ، ورجع أحسن حالا ، ولكن ذلك لم يدم طويلاً . وقال له إسماعيل قدرى :

— قم برحلات أخر في الخارج ..

وهشاً للاقتراح وعزم على تنفيذه ، ولكن التاريخ كان يُعد لرحلة جديدة

في حياة مصر ، فاضطر الرجل إلى أن يعدل عن مشروعه .
 وكان طاهر عبيد يتألق كفنان ، ويهنا بأبوته إلى أقصى حد ، أما كزوج فقد
 خامرنا من ناحيته شك . بلغت رثيفة الأربعين أو جاوزتها بقليل ، ولكن العمر
 لم ينل من أحدها كما نال منها ، بل قدّر بعضنا أنها كانت أكبر مما حدسنا يوم
 زواجها . هزلت بدرجة كبيرة جردتها من كافة مزايا الجسد الأنثوى . وبرزت
 عظام وجهها فتغير شكلها وشحبت صورتها . أجل بقي الحب القديم كما كان في
 الظاهر على الأقل ، وتبدى طاهر كمعادته مرحا ضاحكا ساخرا ، وتساءلنا :
 كيف يكون الحال مع الزميلات والمعجبات ؟! . وعلى أى حال فإن يكن ثمة وفاء
 فمرجعه إلى الأخلاق الطيبة لا إلى الغرائز الراضية . وفي تلك الأيام علم طاهر أن
 أباه معتكف في فيلا بين السرايات لمرض خطير في المثانة ، فأزاح عن صدره عُقد
 السنين ومضى إلى الفيلا . رجع إليها كهلا بعد أن غادرها شابا في ربيع العمر .
 وأحدث ظهوره هزة شاملة ؛ استقبلته إنصاف هائم بحرارة وقبّلتها ، وقادته إلى
 مخدع الباشا دون استئذان ، ورنّا إليه الرجل ملياً وببصر ضعيف ، ثم أخرج يده
 المعروقة من تحت الغطاء فتصافحا طويلا حتى دمعت عينا طاهر ، وقال برقة :
 — شد حيلك يا بابا ، أرجو أن أهنتك بالسلامة في المرة القادمة ..

فشكره بصوت ضعيف ثم سأله :

— كيف حال أسرتك ؟

— تود أن تحيلك بنفسها .

فقال بصوت كالهمس :

— أود أن أراها ..

وتمت الزيارة في جو يعنق برائحة الفناء ؛ الباشا طريح الفراش يطوى الفصل
 الأخير من حياته الشاخخة ، والهائم اشتعل شعرها شيئا وغاض من وجهها ماء الحياة .

وصحبته رقيقة ودرية وإبراهيم ، فبعثت درية بحيويتها وجمالها انتفاضة منعشة في الجو القاتم ؛ ضمتها الهانم إلى صدرها بحنان ، وأبقى الباشا يدها في يده طويلا ، ولبثوا في الفيلا حتى تناولوا الغداء . وبعد أيام أسلم الأرملاوى باشا روحه ، فرثته الصحف رثاء لائقا وودعته العباسية في جنازة كبيرة . ودعت إنصاف هانم القللى ابنتها وزوجته وحفيدتها وزوجها للإقامة معها في الفيلا . ولم يترك الباشا من العقار إلا الفيلا وكمية محترمة من الأسهم والسندات وقليل من المال السائل ، ووزعت تركته بين الهانم وطاهر وتحية وهيام . وأصبح لصديقنا صادق صفوان قصران يتردد عليهما بين آونة وأخرى ؛ قصر الزين وقصر الأرملاوى ، وكان يُسرّ بذلك دون خفاء .

أما إسماعيل قدرى فقد أثبت كفاءة غير عادية في مكتب المحاماة ، وقدمه أستاذه إلى نخبة من رجال الوفد ، وميزته ثقافته الشاملة فاحتل منزلة محترمة في القلوب ، وشهد كثيرا من الندوات في جمعيتى الشبان المسلمين والمسيحيين واشترك في المناقشات ، وبُشر بلمعان قريب ولم نشك في أنه بالغ هدفه طال الزمان أو قصر . ولما جرت انتخابات عام ١٩٥٠ قال له أستاذه :

— أتنبأ لك بأنك ستكون من المرشحين في الانتخابات القادمة !

وعند إلغاء المعاهدة تسنمنا ذروة النصر ، وعند حريق القاهرة هويانا إلى الحضيض . وتعاقت الأحداث وكأنما يوجهها أبلّة أو مجنون ، فعلق عليها طاهر عبيد بقوله :

— ما هذه بدولة ولكنها سيرك هزلى ..

ونحن على حال كئيبة من المرارة والسخرية والتقرز ، هلّ علينا يوم ٢٣ يوليو كالسحر المبين . شملتنا صحوة طاغية وتتابعت الحوادث كالأحلام ، فرحل الملك والإقطاع والألقاب ، وبرز الفقراء والضائعون من القاع فتربعوا على العرش ،

وأصبح كل مستحيل ممكنا . ولم يعد لنا من حديث في ركننا العتيق بقشتمر إلا حديث الحركة المباركة . هرع صادق إلى قريه العجوز الزين باشا أو السيد رأفت الزين ليستمد منه الأخبار ، وراجع ما تبقى له من وفدية قديمة ، ولكنه لم يسعه إلا أن يقول :

— حقا إنها حركة مباركة !

لكن صوته يخونه ، وابتسامته تخونه ، ونظرة عينيه تشي بالانقباض والقلق . ومضى حمادة الحلواني على عادته ، ينهر يوما بقرار فيحدثم حماسه وكأنه أحد الضباط الأحرار ، ثم تترامى إليه معلومة أو إشاعة فينقلب عدوا للدودا ويقول :

— ما هم إلا عملاء أمريكا !

وأما إسماعيل قدرى فقد رحب عقله بالأفعال ورفض قلبه أصحابها . لم يتنكر لوفديته قط ، وساءه التفاف الشعب حول الحركة ، واستعرت بين جوانحه معركة بين عقله وقلبه ، وقال بصراحة :

— كان يجب أن يجعلوا من الوفد قاعدة لهم !

ولا شك أنه وجد آماله الشخصية تداس تحت أقدام الحركة الغليظة العسكرية . العجيب حقا هو حماس طاهر عبيد ! . لأول مرة في عشرتنا الطويلة نراه متوهجا متألقا كالكهرباء ، يرقص طربا ويتغنى بالمجد ، ويبه قلبه وعقله بلا تحفظ . يقول :

— هذا حلمي الذي لم أعرف تأويله إلا اليوم !

ثم بارتياح عميق :

— ودرية معى على طول الخط ..

وبهذه الروح مصى شعره ينبض في مجلة الفكر .

وانطلق قطار الثورة من محطة إلى محطة ، يحقق انتصارات لا حصر لها ، ويذل

العقبات ، ويطوى التحديات .

وما زال صادق صفوان يكابد القلق الذى يأبى أن يفارقه . وشد ما جزع لما حل بأسرة الزين باشا ، فقد ألهم الإصلاح الزراعى الجزء الأكبر من أراضى زبيدة هانم ، كما توقف نشاط الزين فى البورصة ، ولم يعد للأسرة من مورد إلا إيجار المتبقى من الأرض الذى ضمّر أيضا بحكم القوانين الجديدة . وحتى ابنه محمود استقال من السلك السياسى وأقام فى إنجلترا مهاجرا أبديا . ويقول صادق :

— لست من الإقطاعيين ولكننى من ذوى الأملاك ، وقد يأتى دورنا ، ألا

نرون أن الثورة عدوّ سافر للناجحين ؟!

دائما وأبدا يشعر بأنه مُطارِد ، وأصبح فى حيرة وأى حيرة من أرباحه المتصاعدة فيقول :

— لا أدرى ماذا أفعل بمدخراتى ، من الحماقة أن أستثمرها فى البناء ، ومن الغباء أن أودعها فى البنوك ، ومن الجنون أن أبقياها فى بيتى !

وقال لابنه إبراهيم يوما :

— لعل بالك قد ارتاح الآن !

ولكن إبراهيم أجابه :

. — ألم تسمع عن استغلال النفوذ ؟ ، ألم تبلغك أنباء المخابرات ؟ ، ألم تشم

رائحة الفساد ؟!

فقال له حانقا :

— كأنك تحلم بثورة جديدة ، ألا تكفينا ثورة واحدة ؟!

وظن صبرى يوما أنه صاحب الثورة باعتباره إخوانيا ، فلما انقلبت الثورة على الإخوان قبض عليه فيمن قبض عليهم وقدم إلى المحاكمة ، غير أنه كان من القلة التى برئت ساحتها ، وفقد ثقته فى كل شيء ، وفى اللحظة المناسبة هرب إلى

السعودية والتحق بعمل مناسب في شركة مقاولات . وقد شق الفراق على صادق وإحسان ولكنه تعزى بأن ابنه وجد في السعودية مستقرا وعملا وأمنا بعيدا عن مصر التي أصبح يحكمها — في اعتقاده — قانون الغاب . ورغم همه المقيم وآلى ولّى نعمته بحبه وإخلاصه وزياراته المتلاحقة . وكان الباشا القديم قد نيف على الثمانين وتدهورت صحته ولزم حجرته ، فوهنت ذاكرته وذبلت شعلة اهتمامه بأى شيء ، بخلاف زبيدة هائم التي صمدت لتقلب الحظوظ . وعرض صادق عليها أن يمدها بما ينقصها . قال :

— اسمحى لى أن أرد شيئا من جميلكم الذى لا ينسى .
وقبلت معونته قائلة :

— إنك ابنى مثل محمود الذى فقدته إلى الأبد ..
وأخذت السرايات في الاختفاء وحلت مكانها العمائر والسكان الجدد فتساوت العباسية شرقيتها وغربها لأول مرة في التاريخ . وذات ليلة أراد حمادة الحلوانى أن يخفف من قلق صادق ، فقال له مازحا :

— إليك هذا البيت ...

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التى أنت فيها
أتله ثلاث مرات قبل غيار الريق !
فقال صادق بفتور :

— ولكنى سأظل أفكر في الفك المفترس !
ولعل حمادة الحلوانى أيضا لم يبرأ خياله من الفك المفترس . مازال يحتفظ بشقة خان الخليلي والعوامة والسيارة ، ولكنه كان يتساءل كثيرا ؛ ترى ماذا تخبئ لنا أيها الغد ؟ . وكلما ناوشته أفكار السوء لف سيجارة حتى أصبح يتعاطاه على طول اليوم ، مستمدا من سحره استهانة ولا مبالاة . ويقول ساخرا :

— من فضل الثورة أنها تمدنا بعجائب لا يعيش معها الملل .
أو يقول :

— المسألة واضحة كالشمس ، مجموعة من الفقراء ثارت على الأغنياء لتنهب أموالهم وترمى إلى الشعب ببعض الفتات ..
وتلقى أول إصابة مباشرة حين التأميم ، فقد أمم مصنعهم وانقطع دخله الثابت . ولم يهز ذلك ثراءه الواسع ، ولكنه ضاعف من مخاوفه كما أكد إدمانه .
وقال معلقا وساخرًا :

— الله يرحمك يا بابا ، شد ما أثبتنى لكسلى .. وأشدت بأخى لعلو همته ..
فانظر أينما كان الحكيم ..

وقد مرض بكبدته وعولج منه ، ولكنه امتنع نهائيا عن تعاطي الخمر ولم يكن من عشاقها . وحين التأميم بلغ الخمسين من عمره فأخبرنا بأنه لم يعد ينسجم مع أى امرأة جميلة ، وأنه يدقق في الاختيار ليحقق لزاجه ما يريد . ولأول مرة باتت ذاكرته تخونه أحيانا فجزع لذلك وقال :

— الموت يبدأ بالذاكرة ، وموت الذاكرة أقسى أنواع الموت ، ففي قبضته تعيش موتك وأنت حيّ ، وتُرد وأنت لا تدري إلى الأمية !
ولا شك أن سحابة من الأسى نشرت جناحيها فوقه لما حل بأخيه وزوج أخته أفكار الذى كان من كبار الملاك الزراعيين ، ولما جرى على الوفد حزب أبيه ، والبطولات التى أطلت على الدهر في شموخ والتي تتحول من خلال أبواق الدعاية إلى تلال من الخرائب . وقال :

— ضايقنى يوما أنتنى آخذ دون أن أعطى ، اليوم أندم على الندم ، وخير ما يفعله الإنسان في هذه الأيام أن يوطن نفسه على استقبال الموت ، فإذا وقعت شدة رجدنا فيه الفرج ..

أما إسماعيل قدرى فقد عجب لسعى الدهر بينه وبين آماله . كلما ابتسم له المستقبل وثبت الحوادث فطمست ابتسامته ، ذهب المجد وتولى ، لكن حظه أفضل من كثيرين من الوفديين الكبار الذين تمزقوا بين الإهانة والسجن ، ونشاطه في المحاماة يدرّ عليه دخلا لا بأس به ، وأسهمه ما تزال في صعود بالإضافة إلى دخل زوجته . ولم يغب عن عقله الموضوعى ما أنجزته الثورة للوطن والشعب حتى يخيل إليه أحيانا أنه مواطن في دولة عظمى ، أما قلبه فلم يفتح للثورة أو رجالها وتابع في كل حين سلبياتها حتى قال لنا يوما :

— إنها ثورة ذات أهداف جلييلة ولكن القدر عهد بها إلى شلة من قطاع الطرق .. ولم يعد يجد عزاء في تفيدة التي بلغت السنين حين بلغ الخمسين . ولم تكن تسلّم بالواقع أو تستسلم للهزيمة فأنفقت عن سعة على طعامها المختار ورياضتها اليومية ، والموضة التي تتنافر مع سنّها ، وتبالغ في التبرج لدرجة تثير الابتسام . واعترف لنا يوما قائلا :

— هيات أن أنسى فضلها ولكن رغبتى فيها تموت ساعة بعد أخرى ..
فسأله حمادة الحلواني مازحا :

— لعلك تحن من جديد إلى غابة التين الشوكى ؟!
الحق أنه ركز اهتمامه الأول على هبة الله الذى جاءت الثورة وهو ابن ست سنوات ، ويوشك اليوم أن ينتهى من المرحلة الابتدائية ، ويشر نموه بعملقة في الجسم وقوة الملامح وتفوق في الرياضيات . ويقول إسماعيل ضاحكا :
— إنه ابن الثورة مائة في المائة وأنا مضطر إلى تحمله دون تدمر ، وأنحاشي تصحيح أى معلومة له إثارا للسلامة ..

ومرة طرح سؤالاً بلا مناسبة على الإطلاق ، قال :
— للحياة هدف وهذا قد نخلقه بأنفسنا ، ولكن للكون أيضا هدف فما هو ؟!

وغرقنا ليلتها في حوار طويل عن هدف الحياة وهدف الكون فنسينا هومونا الشخصية وإلى حين .

ومن بين أفراد مجموعتنا الفانية ييزغ طاهر عبيد كالقمر في تألقه وينطلق في طريق النجاح كالشهاب . من أول يوم دُعى إلى المشاركة في تحرير مجلة الثورة ، لماذا ؟ . لم يكن من المنافقين ولا أهل الثقة ، لكن شيعره الشعير ، القديم بشر بالثورة قبل أن توجد . وزكاه أيضا أنه عرف يبعده عن الأحزاب ، وسرّه أن ما توثقت العلاقة بينه وبين الضباط المتولين شئون الثقافة ، وهو من ناحيته ، وبتلقائية وإخلاص ، كرس شيعره للثورة ، فما من إنجاز أو نصر أو موقف نبض به قلب الثورة إلا وأعطاه المعادل الشعري في أجمل صورة ، ثم سرعان ما يترجم إلى غناء تردده الإذاعة والتلفزيون في حينه . وسأله صادق صفوان الذي لا يفنى من القلب :

— ألا تستطيع بمنزلتك الغالية عندهم أن تدفع عنا البلاء إذا حمّ قضاؤه ؟
فضحك عاليا وقال :

— لا يدفع ذلك شعر أو نثر ..
وقال حمادة الحلواني بأسف :

— من المحزن وغير المفهوم أنك مخلص فيما تقول وتكتب ..
وقال إسماعيل قدرى بمرارة :

— شعر جميل ومضمون زبالة !
ويقول طاهر جاداً :

— صدقوني إن مصر لم تعتل هذه الذروة منذ عصورها المجيدة كما أنها لم تشهد طيلة تاريخها مثل هذا الرجل المعجزة ، وإنه لعظيم من يستطيع منكم أن يعلو فوق خسائره الذاتية ليلحق بركب التاريخ في مسيرته الشامخة ..

وفي فيلا الباشا الراحل ينشب نزاع ودى أحيانا بينه وبين مامته أو بينه وبين إبراهيم . يقول لإبراهيم :

— أنتنظر حقا ثورة أخرى ؟ .. ما أنت إلا محترف ثورات !

فيقول إبراهيم متحديا طاهر ودرية معا :

— لقد تغير المنظر ولكن الممثلين لم يتغيروا .

— لا تخلو ثورة من انتهازين ولكن بحسبها أن زعيمها رمز للكمال ..

— إنه دكتاتور يا عمى ..

— بل إنه المستبد العادل .

وكانت درية سعيدة رغم فوات عشر سنوات على زواجها دون حبل ، وتجلت موهبتها في الرسم إلى جانب فنتتها الشخصية .

وتحسنت حال طاهر المادية جدا فأتاحت له الفرصة لممارسة ما جبل عليه من كرم أو إسراف إذا شئت ، فهو على حبه المال لا يسمح له أبدا باستعباده .

وجرت الأيام تطير بقوم وترزح فوق آخرين . وظل ركننا بقشتمر عامرا بوجودنا فلم ننتقطع عنه إلا فترة قصيرة حينما قرر صاحب المقهى تجديده .

غير أرضيته ، وطلى الجدران بلون ناصع البياض ، وأحل أثاثا جديدا مكان القديم ، وعنى بالحديقة فزرع الياسمين في أصل سورها وزين أركانها بأصص الورد والقرنفل ، ورم دورة المياه ، وابتاع طاقما جديدا من النراجيل ، وأضاف إليها وحدتين ، واحدة لتقديم الدندومة والأخرى — فرن — لتقديم الكوفة .

وكالعادة لا يتخلف عن مجلسنا في رحاب صداقة لا تتغير ، ولعل ما ساعدنا على ذلك بقاؤنا في حي العباسية رغم ما طرأ عليه من تقلبات الدهر ، فلم ينتقل منها إلا حمادة ، ولكن سيارته كانت تحمله إلينا كل مساء ، وأبى أن يستبدل بنا قوما آخرين . أجل ذهبت في أدراج التاريخ عباسية الزمان الأول ، بالهدوء والخضرة

والسرايات والترام الأبيض ، وانتشرت العمائر ، وقامت الدكاكين على الجانبين ، وفاض الحى بسكانه ، واكتظت الشوارع بالصبية والسيارات الخاصة والعامة ، إنه الزحام والضوضاء والأنفاس المتلاطمة ، ولكن لم يجر هجرها لأحدنا فى خاطر ، ولا تصورنا أنه يمكن السمر فى غير قشتمر . ولم يبق من معارفنا القدامى أحد ؛ انتقل إلى الأحياء الأخرى من انتقل ، وانتقل إلى جوار الله من جاءه الأجل ، وازداد شعورنا الحميم بالمودة ، ووجدنا فى صداقتنا سلوى الوجود وحلاوته ، وغلب علينا الاستسلام للواقع ، وتخلصنا من كثير من رواسب الماضى ، واجتاحنا ما يشبه النعاس الهنىء والحلم العذب حتى انتفضنا قائمين على صوت انفجار كالبركان فى يوم من الأيام عجيب اسمه ٥ يونية . دهشة وتساؤل وتعجب ، حيرة وعدم تصديق ، ثم دهشة وتساؤل وتعجب ، تجرع لواقع لا مفر منه ، كيف ؟ .. لا ندرى ، لماذا ؟ .. لا ندرى ، ثم سيل ينهمر من الحواديت ، وفيضان من النكت ، ومضطرب بلا حدود لعواطف متناقضة ، من أقصى الحزن إلى أقصى الفرح ، ولكن جرثومة الكتابة استقرت فى أعماق كل نفس .

وربما تنفس صادق صفوان بارتياح لأول مرة منذ عام ٥٢ ، خجل أن يعلن ارتياحه ، وربما لم يخلُ ارتياحه من كدر ، ولكن فضحته عيناه ، وفلتات من تعليقاته ، وترديده للنكت المنتشرة كالجراد . وسرعان ما زار رأفت باشا الزين ، فلم يجده قد استوعب ما حدث لتماديه فى شيخوخة متدهورة ، أما زبيدة هانم فأشارت بأصبعها إلى السماء وتمتمت :

— إنه موجود .

ولكن الباشا لم يعمر بعد الهزيمة إلا أياما ومات إثر أزمة قلبية ، ثم تبعته الهانم قبل أن يتم الأربعين ، وقرىبا من ذلك التاريخ توفيت ست زهرانة والدة صادق وشيئت جنازتها من الشقة التى انتقلت إليها بعد أن حوّل صادق بيتهم إلى عمارة .

— ١١٣ —

ولم تنتزع هذه الأحداث صادق من انفعالاته بالحوادث العامة . ولم يعد يشعر
بحرج في الإفصاح عن مشاعره فقال لنا ساخرًا :

— أسد علىّ وفي الحروب نعمة !

وبصفة عامة لم يعد يخشى الفك المفترس بعد أن نزع الحرب أنيابه .
وتراوح حمادة الحلواني كعادته بين المتناقضات ؛ ليلة ينوح راثيا لحال الوطن ،
ويتألم غاية الألم للكرامة التي تمرغت في التراب ، وليلة يسبق صادق إلى الشماتة
والهزل فيقول :

— ألم يقل إنه علّمنا العزة والكرامة ؟ ، اشبعوا عِزّة وكرامة !

وغضب لإسماعيل قدرى غضبة مجللة بالحزن العميق لما نزل بوطنه الجريح ،
وراح يردد بانفعال شديد :

— لا بد من رد اللطمة بمثلها على الأقل ..

ثم يتساءل في حنق :

— كيف لم يتلاش نظام الحكم حتى الآن ؟ ، لو أن هذا الرجل عميل مأجور
ما استطاع أن يفعل بنا أكثر مما فعل ..

ولكن لم يُصدّم أحد كما صُدّم طاهر عبيد ، كأنما جن جنونا أو مات موتا .
ويتنهد هامسا :

— ليتنى مت قبل ذلك .

وأراد حمادة أن يخفف عنه فقال :

— ما من أمة يخلو تاريخها من كوارث .

فقال بصوت منهزم :

— ولكن هذه هي كارثة الكوارث .

فقال مدفوعا بالشفقة عليه :

— ١١٤ —

— طالما أننا أحياء فلا مفر من الأمل .

فتساءل في شك :

— أى أمل ؟

— الأمل فى الأبناء .

فتساءل فى حيرة :

— أبناء الهزيمة ؟

وسأل صادق :

— هل كفرت بالبطل ؟

فصمت مليا ثم قال :

— أعتقد أنه يموت الآن وأنا أموت معه ..

وازدادت رغبتنا فى التلاقى رغم أنه لم يعد يعدنا بتسليية صافية ، لم يعد لنا إلا حديث واحد ثقيل ، وجبة سياسية حامضة ننام وبقاياها المرة ممتزجة بِرِيقنا .
وقلّ الضحك وربما فزعنا إلى التأمل والتفلسف . وينقضى بقية العام ويتبعه العام التالى ونحن نمضى على وتيرة واحدة وندنو من الستين .

وذات ليلة قال لنا صادق صفوان :

— حدثت زيارة هامة فى الدكان ، جاءتنى جارة مع كرميتها لشراء بعض الأشياء ..

فأثارت فى نفوسنا الخامدة اهتماما ، وحدثنا وراء الخبر مفاجأة ممتعة . وتمتم صادق :

— ست أمونة حمدى وكرميتها سناء إبراهيم ..

ولم تخل الأسماء من مضامين نعرفها ؛ فست أمونة حمدى مطلقة فى الأربعين مقبولة بدرجة لا بأس بها ، أما سناء فبنت ثمانية عشر ربيعا وذات جمال موفور .

— ١١٥ —

وهما يعيشان في كنف الأب — جد الفتاة — على بركات وحرمة ست خديجة
علام ، وهو موظف على قد حاله . وقال حمادة الحلواني :
— ست أمونة امرأة مناسبة لرجل في الستين ..

فقال صادق رافعا حاجبيه :

— ولكن عيني ثبتت فوق سناء ..

فقال إسماعيل قدرى :

— إنها يمكن أن تكون حفيدة لك ..

فقال محتجا :

— العمر لا يقاس بالسنين .

فقال طاهر :

— فارق العمر كبير جدا ..

— إنها تذكرني بإحسان في قمة رونقها ، تفاحة أمريكاني ، حيوية وذكاء ..

فقال إسماعيل :

— كابدت الفشل قبل ذلك مرتين ، وفي كل مرة توارى سوء الحظ وراء

الفشل ، أما هذه المرة فإنك تمضي باختيارك ..

فقال صادق بإشراق :

— ويحيى الفرج من حيث لا تحتسب ..

وتساءل طاهر :

— هل ترحب الأم وأسررتها بعريس في الستين لصبية في الثامنة عشرة ؟!

فقال حمادة :

— الرجال يوزنون اليوم بالقرش أكثر من أى وقت مضى ، والفتاة تعيش في

جو فقر في كنف جدها ، فعريسا يعتبر لُقطة ..

فقال صادق :

— نُحِيلُ إِلَى أَنْ أَلُمَّ جَاءَتْ تَعْرِضُ نَفْسَهَا وَكَرِمَتَهَا لِأَخْتَارِ مَا يَنَاسِبُنِي ..

فقال طاهر :

— فَاخْتَرْتُ مَا لَا يَنَاسِبُكَ ..

وقال إسماعيل :

— اَعْرِفْ لِرَجْلِكَ قَبْلَ الْخَطْوِ مَوْضِعَهَا ..

فابتسم صادق ساخراً وقال :

— مَا أَجْدَرُ أَنْ نُوْجِهَ هَذِهِ الْحِكْمَةَ لِبَطْلِ هِ يُونِيَّةِ ، أَمَا أَنَا فَإِنِّي وَاثِقٌ مِنْ نَفْسِي ،

طَالَ عِذَايَ مَعَ الْعِزْوَبةِ وَالْعَفَّةِ وَاللَّهِ أَعْلَمُ بِحَالِي ..

وَلَمْ يُضْعِ وَقْتاً ، فَسَعَى سَعِيهِ ، وَصَادَفَ الْقَبُولَ . وَغَلَبَ عَلَيْنَا الْفَتُورُ لِحَرْصِنَا

الْأَكِيدِ عَلَى سَعَادَتِهِ وَتَمَنَّيْنَا أَنْ تَكْذِبَ الظُّنُونُ . وَكِعَادَتِهِ قَامَ هُوَ بِكَافَةِ التَّكَالِيفِ ،

وَاخْتَارَ لِمَقَامِهِ الْجَدِيدِ شَقَّةَ فِي عِمَارَةِ جَدِيدَةٍ بِمِيدَانِ الْجَيْشِ — مِيدَانِ فَارُوقِ

سَابِقَا — وَبَالِغٍ فِي الْكِرْمِ لِيُغْطِيَ عَلَى نَقْصِهِ وَلِيَسْتَمْتَعَ بِحَيَاتِهِ تَعْرِيضاً لَهَا عَمَّا ذَاقَتْ

مِنْ خَوْفِ حِيَالِ الْفِكَ الْمَفْتَرَسِ . وَهَمَسَ إِسْمَاعِيلُ بَعْدَ أَنْ خَلُونَا إِلَى أَنْفُسِنَا فِي

طَرِيقِنَا إِلَى بِيوتِنَا :

— نَحْنُ فِي زَمَنِ الْلَامَعْقُولِ فَلَا تَدْهَشُوا لَشَيْءٍ !

وَكَأَنَّمَا كَانَ يَمْهَدُ بِقَوْلِهِ هَذَا لِمَا طَرَأَ عَلَى حَيَاةِ حَمَادَةِ الْحُلُوفِ مِنْ تَغْيِيرٍ غَيْرِ مَتَوَقَّعٍ .

لَمْ يَعِدْ يَقْتَصِدْ فِي شُكْوَاهِ مِنَ الْفِرَاغِ وَالْمَلَلِ . قَالَ لَنَا :

— إِلَيْكُمْ صُورَةٌ صَادِقَةٌ عَنْ حَيَاتِي ، أَنَا كَرَجُلٍ يَتَشَاءَبُ بِانْتِظَامِ فِي أَنْتِظَارِ نَوْمٍ لَا

يَجِيءُ ..

ويقول مقطباً :

— كُلُّ يَوْمٍ يَبْدُو طَوِيلًا ثَقِيلًا لَا جَدِيدَ فِيهِ .

— ١١٧ —

وقال وهو يردد ناظره بين طاهر وإسماعيل :

— الضجر هو سرطان الروح ..

وتساءل صادق :

— ما جدوى دائرة المعارف إذن ؟

فهز منكبيه استهانة وقال :

— حتى السطول بات سوداويا ، ولا أجد شيئا من الراحة إلا في قشتمر ..

وفي غمار استعدادده للاحتفال ببلوغه الستين فاجأنا بقوله :

— يا رجال ، زوجوني .. !

فضحكنا طويلا ، ولكنه قال بمجدية :

— إني أعني ما أقول ، زوجوني ، أريد زوجة !

وصمتنا نفكر حتى هتف صادق :

— هذا ما تنبأت به ..

فقال حمادة :

— المسألة لا تعدو محاولة الملء الفراغ .

وقال صادق مؤمنا أو مجاملا :

— أنت رجل تعتبر لقطة عند أكرم الأسر !

هذا كلام يقال ، أما الحقيقة فإن سمعته السيئة كانت أشهر من ه يونية ؛ ما من

أسرة إلا وتراه مثالا للرجل المنحل الحشاش الفاسق ، بالإضافة إلى شيخوخته .

بنات اليوم غير بنات الزمان الأول ، ومن النادر أن تتكرر ظروف سناء حرم

صديقنا صادق صفوان . وكل واحد منا سعى من ناحيته فلم يلق إلا الرفض ! .

حتى قال له صادق بطبيعته المعهودة :

— ما رأيك في حماتي ؟ .. إنها مقبولة جدا وأعتقد أنها توافق ..

فقال حمادة ساخرا :

— أصوم ثم أفطر على بصلة !

وهيج الرفض المتكرر غضبه فثار كبرياؤه وقال :

— المحترفات خير من المصونات !

فوجمنا جميعا ، وقال له صادق :

— اتد ولا تلق بنفسك إلى التهلكة .

فقال باستهانة :

— لم يخبرهن مثلى أحد .

وانطلق في طريقه بإصرار فاستأجر شقة في الزمالك وأثثها حتى جعل منها متحفا ، ودعانا إلى شهود عرسه على مائدة عشاء في الأوبرج . وجدنا العروس امرأة في منتصف الحلقة الرابعة ، ريانة الجسم ، حسنة الوجه ، لم يفلح ثوب الزفاف في مداراة ابتذالها ، ونظقت نظرة عينها الثقيلة بالخبرة والمزاج . قلنا إن حياته المتحررة ما بين خان الخليلي والعوامة لا تتنافر مع أصله بقدر ما تتنافر معه هذه الحياة الشرعية الزائفة ، ولو قامت على الحب لوجدنا له عذرا ولكننا تصورنا أنها لم تقم إلا على العناد والكبرياء . أما هو فأكد لنا — في قشمر — أنها أفضل من الأخريات ، وأنها تنحدر أيضا من أسرة طيبة ! . وما وسعنا إلا أن ندعو له بالتوفيق والسعادة .

ويبلوغ إسماعيل قدرى الستين حقق في المحاماة بمكتبه الذى استقل به نجاحا مرموقا . وناهزت تفيدة السبعين فانهزمت أمام العمر واستسلمت للواقع وراحت تعاني من دوالى الساقين والصداع النصفى . وتخرج هبة الله مهندسا في الرابعة والعشرين من عمره ، وبقلب حطمته الهزيمة وانتكاسة البطل فحقق حلما راوده من قديم وهو الهجرة فهاجر إلى السعودية . وجزعت تفيدة ولكن

إسماعيل قال لها :

— لست دونك في النكد ولكن لعله يجد في المال عزاء ..
ولم يُنسه عمله ولا نجاحه أحزانه السياسية ولا هزيمة وطنه ، وانضم إليها ذبول
زوجته وهجرة ابنه . ولا حظنا أنه مال في تلك الفترة إلى الحديث عن الروحانيات
وعجائب الباراسيكولوجي . حقا لقد مر بها قديما في سياحته الثقافية ، كما أن
جولات حمادة الثقافية المتضاربة لم تخل منها ، ولكن إسماعيل وجد في أقوال
المتصوفين سحرا جديدا ، حام حوله ، وثمل به ، واتجه نحو قبلته كملاذ من عوالم
قلبه . وقال صادق ببساطة :

— اعترف بأنك ترجع إلى الدين .

فقال له متأففا :

— لا تبسّط الأمور فتفقد مغازها ..

وقال طاهر عبيد :

— الليالي حُبّالَى بالعجائب ، والظاهر أن سلسلة الهزائم لا نهاية لها !

وبدا إسماعيل حائرا بين كبريائه وحنانه .

أما طاهر عبيد فقد حزن على الزعيم أكثر مما حزن الزعيم على نفسه . وتلا علينا
ذات مساء قصيدة رثاء تقطر حزنا ومرارة وسخرية من النفس ، ولم يسمع
القصيدة أحد سوانا . ولم تعد الأجهزة تردد أغانيه ، فهي أغان لا تُسمع إلا في جو
النصر . واعترف لنا ليلة قاتلا وموجّها حديثه إلى إسماعيل بالذات :

— زوجتي في حال تفوق في السوء زوجتك ..

فقال إسماعيل بمرارة :

— أعطيتا خير ما عندهما .

فقال بقسوة :

— أصبحت أعافها ..

فقال إسماعيل ساخرا :

— كل شيء يُعاف في النهاية .

وقال طاهر شيعرا كثيرا يفيض بأسا وحزنا وتشاؤما . وتأثر في بعضه تأثرا واضحا بفن العبث ، ولم ينشر شيئا مما يمكن أن يسىء إلى البطل الجريح ولو من بعيد . ويقول أحيانا قابضا على أى خيط من الأمل :

— ها هو يطهر الثورة من سلبياتها ويعيد بناء الجيش ..

فيقول إسماعيل ساخرا :

— سيزيف يصعد الجبل من جديد .

لم يعد يرد على السخرية بعد أن انكسرت نفسه وانهزمت كبرياؤه .

ولما رحل الرجل عن دنيانا رحيله المفاجئ تلقى الضربة القاضية . وقال :

— دعونى أردد مع المؤمنين — ولست منهم — كل شيء هالك إلا وجهه .

ولم يخف صادق صفوان فرحه فقال :

— هذا خبر أمتع من شهر العسل .

وقال حمادة ساخرا :

— موته يعتبر من أجمد أعماله .

أما إسماعيل قدرى فقال :

— هرب في الوقت المناسب تاركا الطوفان لمن يخلفه .

واندج صادق صفوان في حياته بطمأنينة جديدة ، وقال لنا :

— أنا متفائل بالرئيس الجديد .

وسعد بسناء سعادة شاملة ، وشعر بأنه ملك الدنيا والدين ، ربما لم تكن سناء

بالبساطة التى تمنهاها ، فلم تكن صورة طبق الأصل من إحسان . وكانت حصلت

— ١٢١ —

على الثانوية العامة قبل زفافها مباشرة . وفي عز الحب واللهو قالت له :

— أود أن أكمل دراستي !

فانزعج وقال لها :

— أنا لم أكمل دراستي بعد البكالوريا إيماناً مني بالعمل ، افعلي مثلي وكترسي حياتك لعملك كست بيت .

فقالت برقة :

— كان حلمي دائماً أن أكمل دراستي .

— لا معنى لذلك ألبتة .

— كل بنت تفعل ذلك اليوم .

— أهو تقليد أعمى ؟!

— أبدا ولكن للعلم قيمته .

— إنه ليس أهم من كونك زوجة وعلى وشك أن تصيري أما .

فقالت بما اعتبره عنادا ضايقه :

— بعض طالبات الجامعة متزوجات .

فقال بحدة غلبت على حبه وسماحته :

— لا تتصورى أبدا أنه يمكن أن أوافق على التحاق زوجتي بالجامعة

واختلاطها بالطلبة !

فأصرت على التساؤل :

— ألا تثق فيّ ؟

— كل الثقة ، ولكن كرامتي لا تسمح بذلك .

وخطر له أنها لم توافق على الزواج منه إلا تحت ضغط أهلها وظروفها القاسية ،

فقال مخزوم :

— ليكن مفهومنا أننا لن أوافق على ذلك .

فلاذت بالصمت مغلوبة على أمرها ، وحاولت فيما بعد أن تقنعه بإكمال دراستها بالانتساب من الخارج ولكنه لم يرتح لذلك أيضا ، وتذكر ما جرّه عليه ليله مع ليل ، فقال بحزم :

— ولا هذا ، وما أوله شرط آخره نور !

أدركنا أن الدرس الذي لفته له ليلي لم يُمنح من وجدانه ، وطاب لنا أن نتخيل صديقنا الدمث وهو يمثل دور الرجل الأسد ، وقال له إسماعيل قدرى :

— فى كل خرابة لك عفريت .

فقال بثقة :

— ولكننى قتلت هذا العفريت فى قمقمه .

ولم يوافق أحد منا على أسلوبه ولكننا تجنبنا تكدير صفوه بمعارضتنا ، وقد أثبتت له أنها ست بيت نشيطة بقدر ما هى جميلة . وأدركنا أنها تضحى بآمالها أن ترجع مرة أخرى إلى ركن الذل فى بيت جدّها ، خاصة وأن أباه لم يظهر فى الصورة قط بما يقطع بتفاهته أو عدمه . وفى أكثر من مناسبة راح صادق ينوه بحيويتها ونشاطها ويُرجع الفضل فى اكتشاف مزاياها إلى حزمه . وقال :

— ولم أستطع أن أحول بينها وبين مكتبتى ، فوقت فراغها كله تنفقه فى القراءة ، ولم أجد فى ذلك من بأس ، ولكنها قالت لى مرة : إن المعرفة أهم من المال نفسه . ولم أرتح لقولها ، ولولا الحياء لذكرتها بما قدمه لها مالى مما يعجز عنه علم الدنيا والآخرة ، وقلت لها : إن رجل المال أهم رجل فى المجتمع ، وأن كثيرين من المثقفين يعجزون عن إسعاد زوجة ، بل ربما عن الزواج أصلا ..

وضحك حمادة الحلوانى وقال ساخرا :

— ما أعجب أن تعاشرنا العمر كله ويكون لك هذا الرأى !

فقال بنبرة الخبرة والحكمة :

— للنساء لغة خاصة لا يجوز التحدث إليهن بسواها ..

وبقدر ما تمنينا له السعادة بقدر ما ساورنا الشك في توفيقه حتى النهاية .
وأنجبت له سناء بكريتها نُهَى فأفعم قلبه بالسعادة والدفع .

ويمضى بنا الزمن ، نطوى كل يوم خطوة في الحلقة السابعة . من عجب أن
صحتنا تنافس هومنا في قوتها . وعصر الزعيم الثاني عامراً أيضاً بالمفاجآت ؛ فهو
عصر المنابر والنصر والسلام والانفتاح وعصر أكبر درجات سجلها الفساد في
تماديهِ واستفحالهِ ، ولا نكاد نفطن إلى ما طرأ علينا من تغير إلا أن نطَّلِعَ لمناسبة على
صورة قديمة فنقارن ذاهلين بين ما كنا وما نكون ، ونزداد التصاقاً ومودة ، ويمسى
قشتمر عضواً فينا كما تمسى ركننا فيه ، وتبادل النظرات وتذكر الراحلين ونعرف
أن يومنا سيجيء .

ويقول صادق صفوان ذات ليلة :

— يا لها من حياة ! ، إبراهيم ابني يرفض فيمن يرفض الأغبياء ، وزوجتي لا
تضع المال في موضعه اللائق به ، ألا يعكس ذلك شعورهما الخفي نحوى ؟
إنه لا يخلو من همٍّ وكرب ، شدُّ ما سَعَدَ بنصر أكتوبر ثم بالسلام مع إسرائيل
وبالاتجاه نحو الديمقراطية ، ولكنه لا يخلو من همٍّ وكرب . وحاول إسماعيل قدرى
التسريّة عنه فقال :

— لا تقلق فإن البنوة والزوجية أقوى من التفلسف ..

وقال حمادة الحلوانى :

— ثم إننا في زمن المال وأصحاب الملايين .

فقال صادق :

— وأين نحن من هؤلاء ؟ ، ما أنا إلا غنى كلاسيكى من الفئة التى يجرفها

العصر نحو الفقر ..

ونردد بعضاً مما يُقال عن الصفقات والإثراء الخيالي . وفي ذلك الوقت فنيّت أسرة زوجته ؛ فرحل على بركات الجدّ فسيت خديجة الجدّة ثم ست أمّونة حماته . وفي سن الرابعة التحقت نُهى بالروضة ، وإذا به يشغل نفسه ويشغلنا بوافد جديد فيسألنا يوماً :

— ما معلوماتكم عن المقويات ؟!

وكان لا بد أن نبتسم وأن يتورد وجهه ، ولكنه قال :

— ليس الأمر مزاحاً ..

شعرنا بذلك تماماً ، وهنا قال إسماعيل قدرى :

— عليك بالأخصائين ، هذه هي النصيحة ..

وشاركناه قلقه الذى لم يفصح عنه مباشرة ، وحدث أن انتقلت إحسان إلى رحمة الله ، فحزن عليها حزناً صادقا . يقول :

— أكملّ النساء ، لولا مرضها الثقيل لحظيتُ بين يديها بسعادة لم يعرفها

بشر ..

ويقول :

— أشد أنواع الغربة هو ما تشعر به فى وطنك .

أو يقول :

— لعن الله العصر ، إنه يخطف أقرب الناس إلينا ويحولهم إلى أعداء لنا ..

والحقيقة يا أصدقائى أنكم أغلى ما فى الوجود ..

وهو أول من عرف المرض منا ؛ فأصابه روماتيزم مفصلى فظيع الألم ، فتردد على الأطباء ، واعتماد الدواء ، وغير من عاداته الغذائية .. ولكنه كان يقول :

— الحمد لله على الإيمان ، إنه النعيم فى الدنيا والآخرة ، كلما تنغص على

— ١٢٥ —

صفو أو حَزَب أَلَم أو جحد قريب ، أو .. أو ، كلما طاف بى شىء من ذلك
تذكرت الله سبحانه ولذت برحابه وسلمت له أمرى فيلهمنى الصبر والرضا ..
ختام حسن ، أو لا بأس به ، لولا القنبلة التى فجرها تحت أقدامنا حمادة
الخلوانى ، إذ قال لنا فور قدومه :

— يا جماعة ، وأنا قادم بالسيارة لمحت حرم صادق فى النافذة تتبادل إشارة
مربية مع جار شاب فى العمارة المجاورة !
تلقينا الخبر كأسوأ داهية تنقضُّ علينا من عالم الغيب . تبادلنا نظرات حيرة ،
بل استغاثة ، متسائلة مليحة ، مثقلة بالكرب . وخرسنا حيناً حتى قال طاهر :
— لعلك أخطأت الرؤية أو التفسير !

فقال بوجوم شديد :

— أنا على يقين مما قلت ، فكروا قبل أن يحضر .

فقال طاهر :

— الأمر خطير جداً .

فقال حمادة :

— علينا أن نتخذ قراراً .

فقال طاهر :

— لا بد من اليقين .

فقال حمادة :

— أنا على يقين .

ولدنا بأثقل صمت حتى قال حمادة :

— علينا أن نخبره ..

فقال طاهر :

— ١٢٦ —

— ربما دمرناه ..

— هل نخفى عنه ما نعلم ؟

فقال إسماعيل :

— لا مفر من أن يعرف بطريقة أو بأخرى ..

فقال طاهر :

— قد تدفعه الفضيحة إلى ارتكاب جريمة ..

وتبادلنا النظرات طويلا حتى تساءل حمادة :

— ما هو الصواب في نظركم ؟

— أن يعلم وأن ينتهى الموضوع بلا مضاعفات خطيرة ..

وقال إسماعيل :

— الخطأ لا يمكن أن يستمر إلى الأبد ، لا بد من نهاية .

وقال حمادة :

— ليس في وسعنا أن نخفى عنه .

وقال إسماعيل قدرى :

— دعوا الأمر لى ..

ولما جاء صادق صفوان ، مضى به إلى الحديقة . كنا فى أواخر الخريف وكانت خالية . وغابا ساعة مرت علينا أثقل من دهر ، ثم رجعا صامتين واتخذنا مجلسيهما . يا لصورة الإنسان الكريم عند الهزيمة ! . وتشاورنا فى الأمر حتى احتوينا بالتشاور انفعالاته . وطلب مهلة ليراقب الموضوع من بُعد . ومرت أيام ثم لما جاءنا فى ميعاده سألنا :

— ماذا تقترحون ؟

فقال إسماعيل قدرى :

— إليك حلا يتوافق مع حكمتك وتقواك ، الطلاق لا مفر منه ، وعليك أن تحتفظ بنُهي ، وأيضا لا يجوز أن تترك الأخرى فريسة لفرها ، وإذن فالانفاق خير من المحكمة ، استأجر لها شقة وأجر عليها رزقا إكراما لابنتها ، وأكرر فإن هذا ما يتوافق مع تقواك ..

وأعتقد أنه بذل جهدا جبارا الكبح رغبته في التأديب أو الانتقام ، ولكنه فعل الصواب الذي لم يفعله أحد سواه من قبل ؛ طلقها ، حفظ كرامتها ، احتفظ بنُهي سادلا الستار على مأساته . ورجع إلى وحدته ولكنها لم تكن مطلقة هذه المرة ؛ فعلى كُتب منه نُهي ومريبتها ، فضلا عن ذلك فبفضل السن والمرض لم يعد يكابد الحرمان القديم . وجاءه نفر يعرضون عليه شراء دكانه لتحويلها إلى بوتيك من بوتيكات الانفتاح ، فتمتم :

— لم يثبت معي إلى النهاية إلا الدكان وقشتمر .
فقال له حمادة :

— لو كنت مكانك لقبلت الصفقة ؛ المبلغ خيالي ، وأنت آن لك أن تستريح ..

واختلفنا .. ولكنه قال :

— لن يخلفني أحد في عملي ؛ إبراهيم له دنياه ، وصبري تأقلم حيث يقيم ، وحتى متى أعمل من الصباح حتى المساء ؟!

وباع دكانه ، وتفرغ لتربية نهي ، ومهادنة الروماتيزم ، وقراءة القرآن والحديث ، وأدى فريضة الحج ، ولكن ظل ركننا بقشتمر قرة عينه .

حمادة الحلواني أيضا كان ممن سعدوا بنصر أكتوبر ومن رحبوا بالسلام ، ولكن في هدوء رصين وما يشبه البوذية . وقد باء زواجه بالفشل فاعترف بذلك وهو يستمتع بشهر العسل . وتلوح في عينيه أحيانا ابتسامة وكأنما يتساءل

« ماذا فعلت بنفسى ؟ » . والحق أنه لم يشعر بتغيير حقيقى فى علاقته بالجنس الآخر ، ولم تغيّر زوجته من سلوك المرأة المحترفة ؛ ظلت عشيقه لا زوجة ، تُعنى ليل نهار بتبرجها ، وتمارس عاداتها المستقرة فى تعاطى الخمر والحشيش ، وتتجاهل واجباتها المنزلية عدا إلقاء الأوامر للخدم ، ولا تكف عن مطالبتها المالية ، ومضت فى طريقها من أول يوم وبلا تدرج . وأمل فى التغيير عندما حبلت ولكن الجنين مات فى بطنها واقتضت الحال جراحة وإزعاجا دون جدوى . وبثنا شكواه قائلا :

— لا حوار بيننا خارج الفراش ، قد أسمع ولكننى لا أجد ما أقوله .
وتضاعف شعوره بالوحدة والملل وتمنى دائما أن تغيب عن المسكن الجميل لأى سبب ؛ فالوحدة بدونها أخف على القلب .

توقعنا أن نسمع عن الطلاق فى أقرب فرصة . وسأله صادق صفوان :

— أهى شريرة ؟

فتفكر مليا ثم قال :

— إنها تافهة ، لم تسنح فرصة لإظهار شرها ، إنها تافهة ، الاحتراف يقتل الإنسانية فى قلب المرأة ، وفى هذا تكمن التعاسة الحقيقية ..

وسأله صادق بنبرة حزينة :

— وماذا تنوى أن تفعل ؟

فقال ضاحكا :

— الطلاق طبعاً ..

وبعد صمت قصير واصل حديثه :

— ولكن الأمر ليس سهلا ، ولن يتم إلا من خلال معركة عنيفة ، فضيحة وجرسه

ومحكمة وابتزاز ، لن تتورع عن الاشتباك معى أو التعرض لى فى الطريق ..

- ١٢٩ -

فقال طاهر عبيد :

— قلت يوما إن المحترفات أفضل من المصونات ..

— دعنا مما قلت ، ستحاول أن تخرج بأكبر ربح ..

فقال صادق :

— اشتر راحة بالك ..

هذا ما صمم عليه ، وبدأ بإعلان فتوره ، ولم يكن اعتاد على الصبر على الكدر . وراحت ترميه بنظرات مؤنة متحدية . وأخيرا صارحها قائلا :

— الظاهر أنني لم أخلق للحياة الزوجية .

فتساءلت يقحة :

— تزوجتني للتجربة ؟

فقال برقة :

— على خير نفصل مثلما اجتمعنا ، أرجو أن تغفر لي خطئي ..

فسال لسانها بأقوال بذية ، ولاذ بالصمت والصبر ، وعرض عليها أن يبحثا عن اتفاق يرضى الطرفين بعيدا عن المحكمة . طالبت بمائة ألف جنيه ، فأثر الاحتكام إلى حكم القضاء ، وبعد نزاع وأخذ ورد رضيت بربع المبلغ . وقال لنا :

— إنها خسارة فادحة في هذا الزمن المجنون ، لا قيمة لثروتي اليوم ، والغلاء يحرق الأخضر واليابس ، إنني أدفع أربعين جنيا أو خمسينا ثمنا للقرش الذي كنت أشتريه بخمسين قرشا ! ، ولكن الملل يعتبر رحمة بالقياس إلى معاشرة محترفة تافهة ..

فقال له إسماعيل قدرى معزيا :

— على أى حال إذا أردت أن تتزوج زواجا حقيقيا ..

(قشمر)

فقاطعه بشراسة :

— توبة ! ..

واعتبر رجوعه إلى الحياة التي سبق أن ضاق بها غنماً وأتى غنم . وحدث أن انقطع عن قشتمر على غير عادة سابقة ، مرت ليلة ولحقت بها أخرى ، فذهب الأصدقاء يتجرون عن سر غيابه في مظانه ما بين خان الخليلي والعوامة وشقة الزمالك ، وعرفنا الحقيقة المزعجة ، وهي أنه يعالج في مستشفى المعادي على إثر ذبحة صدرية دهمته . وقصدنا المستشفى ونحن من القلق في نهاية . واستقبلنا هناك أخوه توفيق وشقيقته أفكار فأهديا إلينا السلام والطمأنينة بأنه عبر الخطر ولكنه ممنوع من الزيارة بضعة أيام ، وقد صار توفيق صورة من يسرى باشا في آخر أيامه ، أما أفكار فتبدت عجوزا عجفاء مسحاء مكرمشة الوجه كأن لم يجلس

الجمال يوما على عرش كينونتها ويتحكم . وتمتم طاهر عبيد :

— ما أكثر الأردية التي يلفعنا بها الدهر .

ولما اجتمعنا به بعد يومين سرَّ بوجودنا حوله سرورا طفع به وجهه الذابل ، وحدثنا عن الذبحة فقال :

— حضورها وحشى مرعب ، فإذا مرت استرد الإنسان طبيعته وكأنه لم يكن على مبعدة قيراط من الموت ..

وقال إنه كان وحده في غاية من السطل ، وقام ليتناول عشاءه في تلك الساعة المتأخرة من الليل عندما اشتعل مس كهربائي في أعلى صدره ، وعصره الألم عصرا وأوشك أن يختنق فتأوه وصرخ وانطرح على الأرض يتقلب على الجنين ، واتصل الخادم ببيت شقيقه فجاءه بصحبة طبيب صديق ثم نقلوه إلى المستشفى ..

وغادر المستشفى بعد ثلاثة أسابيع ورجع إلى قشتمر ليملاً مكانه الذي لا يملؤه سواه . وطرق بابهِ الدواء والرجيم . قال :

— ١٣١ —

— يريدون سلب اللذة الباقية لى فى الحياة ..

فقال صادق صفوان :

— أيضا للروماتيزم رجم خاص وللضرورة أحكام ..

فقال حمادة :

— ولكن الحياة إما أن تكون حياة أو لا تكون .

وتبين لنا فيما بعد أنه يواظب على تناول الدواء ، أما الرجيم فتخطاه كأن لم يكن . استمسك بعاداته الغذائية بكل جرأة واستهانة ، ولم يمتنع عن الكيف ولم يقلل منه . وخاطبناه بلسان الوعظ فأمطرنا بسخرياته حتى سأله طاهر عبيد :

— هل قررت الانتحار ؟

فقال ضاحكا :

— قررت ألا أتهاون فى حب الحياة .

حتى النساء لم يقلع عنهن تماما ، يستضيفهن ولو مرة فى الشهر . وسأله صادق

باسما :

— ألا تعفك السن من هذا الواجب ؟

ففقها قائلا :

— لكل حال ما يناسبها !

أما طاهر عبيد فقد وجد نفسه تحت حكم الزعيم الثانى فى عالم غريب كربه لا يحتمل ، وأساء به الظن منذ أول ساعة وعده عميلا لجميع القوى الرجعية فى الداخل والخارج . وما لبث أن عزل من رئاسة تحرير الفكر دون أن يفصل من المجلة ، فغضب وغضبنا معه وامتنع عن الكتابة فلم يهتم به أحد ، ولم يظهر له أثر فى أى جهاز من أجهزة الإعلام . ولما حدث النصر العظيم تلقاه بفتور غريب ، وراح يرجع جذوره إلى البطل الراحل . إنه الوحيد فى شلتنا الذى عبّد الراحل فى حياته

وقدس ذكره بعد مماته ، ولولا صداقتنا العجيبة لربما ضاق بنا وانصرف عنا ولكنه أبقى علينا وصمد لنا يلقي الجدد بالجد والهزل والهزل . واقتصر نشاطه في تلك الفترة على نشر بعض القصائد في المجلات العربية التي تصدر في الخارج . ولما جاوز الستين بقليل صادفته تجربة جديدة لم تجر لأحد في تقدير ؛ في ذلك الوقت عرف محررة جديدة تُدعى أنوار بدران التحقت بالفكر . وضح أنها كانت من قرائه وأن إعجابها بشعره فاق كل أحلامه ، وقد زارته مرات في قشتمر وتعرفت إلينا ، وعرفنا أنها خريجة آداب قسم اللغة الإنجليزية ، ووجدناها غاية في الذكاء وعلى قدر عظيم من الثقافة بالقياس إلى زمانها وعمرها البالغ خمسة وعشرين عاما ، سمراء رشيقة عادية الملاحظة صغيرة العينين وبأنفها فطس خفيف ولكنها في الجملة جذابة . ومن واقع الملاحظة الدقيقة سأله إسماعيل قدرى ذات ليلة :

— هل تحب تلميذتك ؟

فأجاب بإيجاز وصراحة :

— نعم ..

فتساءل حمادة الحلواني :

— هل اللعب على الطريقة العصرية ممكن ؟

فأجاب طاهر :

— ولكن عاطفتي جادة !

فقال صادق صفوان :

— ظننتك أحببت بما فيه الكفاية ..

— ليس للحب قانون !

— ورثيفة ؟!

— انتهت من زمن غير قصير ..

— ١٣٣ —

فقال إسماعيل قدرى ضاحكا :

— شلتنا تستحق أن يخصص لها فصل في كتب الجنس !

فقال طاهر مستسلما :

— الحذر لا ينجى من القدر !

ومن الغريب أنه في ذلك الوقت حملت ابنته درية لأول مرة منذ زواجها ،
حمات بعد أن قاربت الأربعين ، وبعد أن يئست من الحمل واستشارة الأطباء ،
وبدلا من أن ينتظر طاهر حفيده في وقار مناسب أسلم نفسه للحب . وجاءنا
ذات ليلة ثلثا بفرحة شاملة لم تُر عليه منذ زمن طويل ، وقال لنا قبل أن يطلب
القهوة :

— سنتزوج !

ولم يسعنا إلا إزجاء التهانى ، وسأله صادق :

— ورثيفة ؟

فمط شفته السفلى وقال :

— كان لا بد من المصارحة ، موقف عسير ومؤلم ولكنى متعود على مواجهة
التحديات ، وهى موقنة من أنها لم تعد تملك ما تعطيه .. وطمأنئتها من أول الأمر
بأنها ستبقى فى بيتها معززة مكرمة ..

وصمت قليلا ثم قال فى حياء وتأثر :

— قالت لى بهدوء ولكن بصوت متهدج وعينين شارقتين بالدمع « تقبل رثائى
ولكن ما باليد حيلة » فقلت لها « أنا مقتنع بأننى مخطئ » فقالت « لا شك فى ذلك ،
أوتيت حكمة كبيرة فى وقت لم تكن فى حاجة ملحة إليها ، وفقدتها فى ساعة
الحاجة إليها ، ربنا معك » .

تخيلنا بأسى شديد الزوجة التعيسة التى هجرها زوجها بعد أن تنكر لها زمانها
(قشتمر)

وتركها نفاية . وقال صادق صفوان :

— لا شك أنها تتجرع من المرارة ما لا يتصوره أحد ، رأيت إحسان في حال مثلها رغم وضوح عذرى وقوته ..

لكن السعادة استخفته وجرفت في طريقها المشاعر المترددة ، يبدو أحيانا كطفل برىء فيذكرنا بأيام نصره الخالية . وقال لنا على سبيل الاعتذار :

— لا يوجد في دنيانا شيء صحيح سليم ، فلماذا أطلب أنا بذلك ؟

ولأول مرة تخالفه درية وتدين قراره . قالت له :

— بابا ، ما كنت أتصور ..

فقال لها باسمها :

— إنه شيء طبيعي ويحدث كل يوم .

فقالته برقة :

— وماما ؟ ، نحن مطالبون بالوفاء وهو جميل كالحب ..

أعاد علينا حوارها بفخار خفى ، ولكنه مضى في سبيله باندفاعه المعروف عنه

منذ قديم . وقال لنا كالمعتذر :

— الحب هو الحب ، ولدى حضوره تتلاشى القوى المضادة جميعا في

غمضة عين .

وواجهته — وهو يبحث عن عش الزوجية الجديدة — مشكلة لم نعرفها في

زماننا الأول وهى العثور على شقة ، ولكن حلها لم يكن مستعصيا ؛ فبعد تعب

غير قليل وجد شقة فى الجزيرة بإيجار حديث مرتفع وبلا خلو ، واستقبل حياته

الجديدة كأنما يدخل دنيا لأول مرة ، ولم تسعده أنوار بالحب وحده ولكنها أنعشت

بذكائها وصداقتها وعشقها الصادق للثقافة ، بالإضافة إلى تذوقها العميق

لشعره . قال لنا ذات ليلة :

— ١٣٥ —

— إنها تصلح أن تكون عضوا في مجلسنا هذا !
وقررت تأجيل الحمل فسرّه ذلك جدا ، ولكنه لم يعرف لها انتماء سياسيا ، فهي
تسمع وتقرأ ولا تصدق ولا تهتم ، ويتركز وعيها في الشعر ونقده ومحاولة قرضه
أحيانا . ولما باح لها بناصرته قالت له :

— لن تعثر على جدية حقيقية إلا في التيار الدينى ..
فسأها منزعا :

— أهذا إعجاب ؟

— أبدا ، إنهم وحدهم يقفون على أرض صلبة في محيط يمور بالاضطراب
والفساد ..

فسأها وهو يزداد قلقا :

— هل يلوح لك أمل من ناحيتهم ؟

— أبدا ..

ثم متسائلة :

— لماذا لا تهاجر ؟ .. الغلاء يتأذى يوما بعد يوم ، وفي الخارج توجد فرص
رائعة ..

— لم تنعدم كل الفرص في الداخل ، ها هي مسارح القطاع الخاص تطلب
منى أغان واستعراضات ..
فهتفت :

— كيف تستبين بسمعتك وترضى بالهبوط !؟
وقلنا له صراحة إنه ليس من الحكمة في شيء أن يفكر إنسان في الهجرة وهو
يقترّب من منتصف الحلقة السابعة . وقال له صادق صفوان :
— تلييتك لطلبات القطاع الخاص ستمده بأسباب للارتفاع !

والواقع أنه استجاب لمغريات القطاع الخاص تحت ضغط ظروف المعيشة وارتفاع الأسعار ومسئوليته في الإنفاق على يتيين . وبذل أقصى ما يملك من مهارة ليتجنب الهبوط ولكنه شعر بأن صورته المثالية قد اهتزت في عيني أنوار . وازدادت أرباحه ولكن لاحت في عينيه نظرة شاردة أُنذرت بما وراءها وبررت مخاوفنا . وتوقعنا مع جريان الزمن أن تعزف الرباب أنغام الأسى التي أَلَفْنَا سماعها من صادق وحماة . وحملت أنوار في أثناء ذلك مختارة ، ولكنها كابدت ولادة متعسرة وأنجبت طفلة ميتة . وقال لنا طاهر :

— ليس هذا فحسب ، ولكنها اقتنعت أخيراً بأنها لن تكون شاعرة وكفّت عن المحاولة ..

على أى حال فإنها تتقدم كناقدة ، وما زال بوسعها أن تحمل من جديد وأن تلد ثمرة حية رائعة . وغلب على طاهر تذكر ماضيه المضىء في ظل حاضره ، فتضاعف همه وقلقه ، وبدأ كأنه يقيق من سحر عشقه وأنه لا يجد في قبضته إلا هواء . وفي ذات ليلة اعترف لنا بصراحته المعهودة قائلاً :

— انتهى صاحبكم !

تطلعنا إليه متسائلين عما يعنى فقال :

— استقل كل منا بحجرة منفردة ..

ثم بصوت هامس :

— ما زالت العلاقة بيننا كأحسن ما يكون ..

وعُرض على أنوار عمل في مجلة عربية تصدر في لندن ، وشعر برغبتها في السفر ، فضلاً عن أنه لم يجد مبرراً للرفض . ولعل صادق صفوان كان الوحيد بيننا الذى قال له :

— هذا وضع غير لائق .

ورجع طاهر إلى شارع السرايات ليقم من جديد مع رقيقة ودريه وإبراهيم وحفيدته الجديدة نبيلة . واندفع في ميدان الفن السهل بعيدا عن أنوار التي عذبتة فترة كأنها ضميره الغائب ، وكان قد أحيل على المعاش ولكن المال جرى بين يديه في فيض ويسر حتى قال لنا ساخرا :

— أصبحت من أغنياء الانفتاح ..

ولكنه في أعماقه حزين حزين ، يطارده الشعور بالسقوط . وسألنا مرة :

— ما أعذب أمل في حياتي ؟

فأجابه حمادة ساخرا :

— أن يموت الزعيم أو يقتل !

ولكنه أجاب نفسه قائلا :

— إنه الموت ، إلى أود الموت وأستجديه ..

وسكت حتى انتهت احتجاجاتنا ، ثم قال :

— لولا درية ، أو لولا درية ونبيلة لانتحرت ، يمنعي حبي لهما وخجلى

منهما ..

فقال له إسماعيل قدرى :

— سيقى شعرك القديم شائخا ويغفر لك ما تأخر .

وقال له صادق صفوان :

— وهل من الإجماع أن يدفع إنسان عن نفسه غائلة الجوع والفقر ؟!

وتردد قليلا ، ثم قال بصراحته الطيبة :

— وكيف تعد أعمالك الأخيرة هابطة ؟! ، إنها في نظري كأعمالك الأولى في

جمالها إن لم تزدد !

وكابد وهو يقترب من السبعين اضطرابا في البول غير حميد ، فاكشف

الأطباء خلافاً في البروستاتا ، ووصفوا له علاجا كتجربة فإن لم تفلح فلا مناص من الجراحة . واستقبل المرض باستهانة ظاهرة ، وتمتم برجاء :
— لعلها النهاية .

و ذات ليلة ونحن راجعون من السهرة قال صادق :
— ما رأيكم ؟ ، إني أفكر في أن أقترح على طاهر تطليق زوجته أنوار ؟
فسأله إسماعيل عن السبب فقال :
— إن لم يبادر هو فستسبقه إلى ذلك وتضاعف من شجونه ، هل تتصورون أن تعيش فتاة في سنّها في تلك البلاد بلا قلب ؟
— ألا يضيف الاقتراح إلى أحزانه حزنا جديدا ؟
— كلا ، لقد خرجت من حياته إلى الأبد .

وكاشفه صادق برأيه في الليلة التالية ، وكأنه لم يفاجأ بالاقتراح وقال :
— فكرت في ذلك طويلا ، ومن العدل أن تجرب حظها مرة أخرى ..
وحرر لها رسالة رقيقة بطلبه ، وتم الطلاق ، وتنفسنا جميعا الصعداء . ولكن
يخيل إليّ أن طاهر لم يكفّ عن الرغبة في الموت وانتظاره .
وزهد إسماعيل قدرى في المحاماة فانتظر حتى يستحق المعاش وأحال نفسه عليه . وفي فترة عودة الأحزاب ، وعودة الوفد بالذات ، خفق قلبه وناوشته أحلامه القديمة . حقا إنه اليوم شيخ أبيض الرأس ولكن الحزب الجديد عامر بذوى الرعوس البيضاء ، ومنهم من يكبره بعقد أو عقدين من السنين . ولكن طاهر عييد سأله :

— ما رسالة الوفد اليوم ؟

فأجاب بقوة :

— الدفاع عن الديمقراطية .

فقال طاهر :

— والدفاع عن الاقتصاد الحر ثم تصفية ثورة يولية ، وبذلك يكرس نفسه
الحزب الأول للرجعية ..

— لا يمكن أن يتجاهل مطالب العدالة الاجتماعية وهو أول من سبق إليها في
إطار زمانه ..

— هذا ما يقوله الحزب الوطني ، فما معنى أن يقوم حزبان لتحقيق رسالة
واحدة ؟

وجعل يفكر في الموضوع ، ويتابع الحوار بين عقله وقلبه ، ولكن الظروف
اضطرت الوفد إلى تجميد نشاطه فأعفته من حيرته .

وبدا إسماعيل مع مرور الأيام أصحّنا بدناً وأيقظنا فكراً وأشغفنا بالاطلاع
المستمر . وما زالت ست تفيدة متشبثة بالحياة رغم تفشى الشيخوخة في جسدها
وروحها ، حتى أوشكت أن تنسى ابنها المهاجر . وأكبر ما واجه الأسرة في ذلك
الوقت مشكلة أعباء المعيشة ؛ فرغم إيراد ست تفيدة ومعاش إسماعيل ومدخراته
من العمل لم تطمئن إلى التغلب على الغلاء مع المحافظة على مستوى معقول من
الحياة ، وكانت ست تفيدة تملك خرابة في السبئية فاقترح صادق على إسماعيل
بيعها والانتفاع بارتفاع سعر الأرض الأهوج . وأقنع إسماعيل حرمة بذلك ،
وبيعت الخرابة بخمسين ألفاً من الجنيهات ، ووهبته هدنة طويلة يطمئن بها القلب
ويستقر . وغلب عليه بوضوح ميله إلى الروحانيات والتصوف ، واستشهاده
بيننا بأقوال كبار الصوفيين وشرح رموزها ، وتفرد بذلك فلم يحظ بمن يستجيب
له أو يأنس إليه ؛ فصادق صفوان مؤمن بسيط لا قبل له بالشطحات أو الرموز ،
وحمادة هواؤه في التنقل ، يتصوف معه ليلة وينقلب عليه في الليلة التالية فيسخر منه
ومن جميع الأقطاب ، أما طاهر فلا دين له ، وقد سأله مرة :

— ١٤٠ —

— أأنت دارس محب للاستطلاع أم تبغى السير فى الطريق ؟
ياله من سؤال يطرح على رجل يؤمن بالإيمان كله بالعقل والعلم ولا يستطيع
أن يتخلى عنهما . وأجاب :

— الإلهام وسيلة للمعرفة كالعقل ولكل منهما مجاله ..
فقال طاهر :

— أما العقل فنعرفه معرفة حميمة ، أما الإلهام فنسمع عنه فقط ..

— ويمكن أن نعرفه أيضا ، وقد عرفه الكثيرون ..

فابتسم طاهر فى استهانة وقال ساخرا :

— علينا أن نتوقع أن تحيثنا يوما مرتديا خرقة معرّضا عن الدنيا وما فيها ..
فقال بحزم :

— كلا ، لست من هؤلاء ، السر يوجد فى الدنيا كما يوجد وراءها ، والسماء
والأرض والأشياء تخاطبنا فى كل حين ، وعلينا أن نعى ما نقول ، فأنا أعشق السر
كما يتجلى فى هذه الدنيا ، كما سأعشق وجوده الآخر بعد الموت ..
ويضحك طاهر قائلا :

— إنها الشيخوخة والخوف من الموت ..

فيقول إسماعيل باسما :

— إنه الحب ، وهو أكبر من الشيخوخة والخوف ..

— جميل أن تبرر تعلقك بالدنيا على هذا النحو ..

— فهتف :

— كلا ، إنه تعلق من نوع خاص ، تعلق مقدس ، ولا ينجل من الاعتراف

بأن قمة الجمال فى الدنيا يتركز فى المرأة !

ويقهقه حمادة الحلوانى قائلا :

— لا داعى للـف والدوران ، قل إنك تستقبل المراهقة الثانية ، وأنك ترسم
خطة لارتكاب الخيانة الزوجية ..

فقال باسم :

— على أن أتحدى بالصبر ..

وضحك طاهر كما كان يضحك قديما وقال :

— وضحت طريقتك يا شيخ إسماعيل ، ومقاماتها هى الثروة والتأمل والحب

ثم المقويات الجنسية !

على أى حال فإن سلوك إسماعيل لم يخاف خيال طاهر فى الظاهر على الأقل ،
ورفض بكل قوة أن يعد مسلكه هروبا ؛ فإنه لا يعرض عن الحياة حتى آخر لحظة
ولا يزهى فى حبها وتصور الكمال لها ، ولم يسلم نفسه للتأمل والحب إلا بعد أن
أدى واجبه فى نطاق قدراته عمرا طويلا . ولم نعرفه كما نعرفه اليوم صفاء وعذوبة ،
فهو لا يجرى وراء الملامح كما يجرى حمادة مثلا ، ويقينا إنه يجد فى الحب ما لا
يجد أى عاشق عادى ، بل يجد فى الجنس ما لا يتصوره أى رجل عادى ! ،
ولكن حق لصاى صفاى أن يقول :

— الشرطة لا تعرف لهذا السلوك إلا وصفا واحدا هو المنصوص عليه فى

قانون العقوبات ، فربنا يستر عليه !

* * *

هلموا نغضى معا فى الحلقة الثامنة . ركن قشمر باق ، ربنا يديمه ! المكان
المستقر الوحيد مهما تثر العواصف من حولنا . ولا تحول جذرانه القديمة بيننا
وبين الدنيا . وتمر السنون سراعا فلا تمنع قلوبنا من الخفقان أو ألسنتنا من الكلام ،
حتى الحلم تنعم به ، فضلا عن ذكرياتنا المشتركة ومودتنا الأصيلة ، تمدنا
بين الحين والحين بنادرة نردها أو ابتسامة نبسّمها . حقا يرعبنا الغلاء ،

ويكدرنا الفساد ، ويجزنا الظلم . ويوم قُتل الزعيم فزعنا وتساءلنا عما يجتبه لنا الغد . ورغم الشيخوخة والروماتيزم والذئبة والبروستاتا والتصوف ذهبننا متوكئين على العصي إلى مركز الاستفتاء بالمدرسة القديمة بين الجنائين لنتخب الرئيس الجديد الذى تعلق به آمالنا بقدر تعلقها بالأمان والحياة .

وتلقى صادق صفوان من الروماتيزم آلاما كثيرة ، ولكن بيته سعد بنمو نُهى ودخولها المرحلة الإعدادية وبزيارات إبراهيم ودريّة ونبيلة له . ولم تنقطع المراسلات بينه وبين صبرى الذى وعده بزيارة قريبة لمصر هو وأسرته التى كونها فى الخارج . وأصبح صادق يصلى وهو قاعد ، ويمضى وقتا كل يوم فى سيدى الكردى ، وقد هبطت عليه الشيخوخة بجملها الخاص الذى تجلى فى بياض رأسه وشاربه ووقار وجهه ، وربما تساءل :

— ترى كيف يكون زمان نُهى ونبيلة !؟

فيفتح باب الحديث عن الشباب وتحديات الواقع له وما فعله الماضى بحاضرهم ومستقبلهم . فيقول حمادة الحلوانى :

— أبناؤكم أفضل حظا من الملايين الضائعة ..

ويقول إسماعيل قدرى :

— عسى أن تصهرهم الشدة فتخلق منهم عمالقة ..

فيسطرده حمادة :

— عايشنا الوطن مع ثورتين ، وصادفنا من الآمال والإحباطات ما لا يعد ولا

يحصى ، وها نحن نشهد الوطن مطحونا فى مآزق لم يجر لأحد فى خاطر ..

ويقول إسماعيل :

— لا أعفى أحدا من مسؤوليته ، ومن الخطأ أن نحصر الذنب فى شخص أو

شخصين ..

وقدما أنفسنا للمحاكمة ، فطال الجدل بين دفاع وهجوم ، وعجز صديقنا حمادة عن الدفاع عن نفسه . ثم حدثنا صادق عن ابنته نُهى فقال :

— يسرنى أنها متدينة ولكنها مولعة بالأغاني الإفرنجية ، عاشقة للتليفزيون ، ورغم تفوقها الدراسى فهى لا تحب الثقافة المقروءة ، ولا اهتمام لها بالشئون العامة ..

فقال طاهر ضاحكا :

— إنها متصوفة على طريقتها الخاصة !

ونظر صادق فى وجوهنا الشائخة وقال ضاحكا :

— حقا أصبحنا هياكل عظمية ، وسيكون أتعسنا من يمتد به العمر بعد رحيل الآخرين ..

أما حمادة الحلوانى فكأنما اعتاد ضجره ، فصبر وندرت شكواه ، وكلما جرى الزمن صالح الحياة ورضى عنها ، ولم يحتمل قيادة السيارة وفكر فى استخدام سائق ولكن هاله الأجر الذى طالب به ، فركن السيارة واستعمل التاكسى . وعاد يقول :

— لا قيمة اليوم لأغنياء الزمن الماضى ..

بقى له من لذائذ الحياة الطعام والحشيش ، وحتى الحشيش عجز عن تدخينه فى الجوزة ، أما القراءة فلم يعد يستمتع بها أكثر من ساعتين فى اليوم . وسمع صادق صفوان يقول مرة :

— من الحكمة أن يفترض الكفرة منكم أنهم مخطئون ولو بنسبة ١٪ وأن يعملوا فى هذا النطاق حسابا للآخرة ..

ولم يمر قوله بلا أثر كما مر بطاهر عبيد . لم يكن غريبا عن الإيمان كل الغربية ، فقد طاف به كما طاف بكل رأى وعقيدة ، تبنى مرة الإسلام ومرة المسيحية وثالثة

اليهودية ، لذلك فكر في قول صادق باهتمام . ولما جاء رمضان قرر أن يصوم
ويصلي ، فعاش مسلماً حوالى الأسبوع ثم ارتد أو نسي ، كما نسي الذبحة ، بل كدنا
ننساها معه ، وإن حدث وحرك أحدنا الموضوع قال :

— مجنون من يعذب نفسه في مثل عمرنا حرصاً على الحياة !

ويشرد أحياناً ثم يقول :

— أى مقلب نشره لو أن إحساسنا بالموت يستمر معنا في القبر ولو لمدة

قصيرة !

وسأل صادق صفوان يوماً :

— ألا تندم على أنك لم تتزوج ولم تنجب ؟

فأجاب بصدق :

— مطلقاً ، ولكنى ندمت على تجربتي السخيفة مع الزواج ..

وطاهر عبيد يزاد ثراء وقرفاً ولم يخف وزنه ، ولا يعفيه مرضه من إزعاج
وكدر بين الحين والحين ، وهو وإن ثابر على رغبته في الموت إلا أنه يخاف المرض
ومضاعفاته . ووافته أنباء بأن أنوار بدران تزوجت من زميل في المجلة فأبلغتنا الخبر
دون مبالاة . ويقول له صادق صفوان :

— كيف تتمنى الموت وبين يديك درية ونيلة ؟

فيقول طاهر مقهقها :

— حقوق الإنسان ينقصها حق جديد هو حقه في الموت إذا شاء ليتولاه

الطب الشرعى بأيسر السبل ..

وإسماعيل قدرى يمضى في طريقه من مقام إلى مقام ما بين التأمل والحب
والجنس ، وصحته صامدة بصورة عجيبة . وتمر الأعوام ولكنه يبدو أصغر منا
بخمس سنوات على الأقل .

— ١٤٥ —

وقال له طاهر عبيد :

— الطاقة الجنسية لها حدود على أى حال !

فقال بطمأنينة :

— ربما ، ولكن تبقى معى الأزهار والنجوم والليل والنهار ، ولا تنس هذا

الركن الأمين فى قشتمر ، ركن الوفاء والمودة الصافية ..

أخبرنا أن ابنه هبة الله ذكر له فى آخر رسالة تلقاها منه أنه يفكر فى العودة إلى مصر وإنشاء مشروع مناسب ، فسررنا بالخبر .

* * *

وتسير الأيام بلا توقف ، لا تعترف بهدنة أو استراحة ، نحن نكبر وحبنا يكبر ، إن غاب أحدنا ليلة لعذر قهرى قلقنا وتكدرنا . وفى لحظا الإحساس الفائق يسمعنا الزمن صلصلة عجلاته ، ويرينا قبضته وهى تطوى الصفحات الأخيرة . ويتساءل حمادة الحلوانى :

— ترى كيف تجىء النهاية ؟

فى البيت ؟ .. فى الطريق ؟ .. فى المقهى ؟ . يسيرة رحيمة أم خشنة وحشية ؟ . وسرعان ما نهرب إلى شتى الأحاديث . ومضت الذاكرة تتمرد فلم يعد حمادة وحده . ويناقش موضوعا ذات يوم ولكنه ينسى اسم من يريد أن يستشهد به ، ولما أعياه تذكره قال :

— أقصدُ صاحب نظرية الموناد !

فيتذكره إسماعيل قائلا :

— لبيتنز ..

فيتنهد قائلا :

— كيف غاب عنى اسمه ؟! .. هل يكون ختامها الأمية من جديد ؟!

ورحنا نتذكر من طواهم النسيان ، صفوان النادى وزهرانة كريم ، رأفت
باشا الزين وزبيدة هانم عفت ، إحسان ، يسرى باشا الحلوانى وعفيفة هانم
نور الدين ، عبيد باشا الأرملاوى وإنصاف هانم القللى ، قدرى سليمان وفتحية
عسل ، وعشرات من الزملاء والمعارف .

العباسية القديمة هل بقى منها أثر ؟ ، أين الحقول والحدائق ؟ ، أين النخلة
ومجلسها وغابة التين الشوكى ؟ ، أين البيوت ذوات الحدائق الخلفية ؟ ، أين
السرايات والقلاع والهوانم ؟ ، هل نرى اليوم إلا غابات من الأسمنت المسلح
مظاهرات من المركبات المجنونة ؟ .. هل نسمع إلا الضجيج والضوضاء ؟ ، هل
نحرق بنا إلا أكوام الزباله ؟!

— كلما ضن الحاضر نبأ يسرهرعنا إلى الماضى نقطف من ثماره الغائبة . نفعل
ذلك رغم وعينا بما فيه من خداع وكذب ، وعلمنا بما أترع به الماضى من سلبيات
وآلام ولكننا لا نستطيع أن نرد النفس عن الاستمتاع بذلك المورد الملىء بالسحر
والسراب .

وقال لنا صادق صفوان يوما :

— أقترح أن نحتفل بمرور سبعين عاما على صداقتنا الوطيدة ..

وضممنا الاقتراح إلى صميم قلوبنا . وقال حمادة :

— لنحتفل به فى خان الخليلى ..

فقال طاهر عبيد :

— العوامة أفضل ..

ولكن إسماعيل قدرى قال :

— بل فى قشتمر ، فنحن وصداقتنا وقشتمر كلٌ لا يتجزأ .

ووافقنا على ذلك دون تردد ، وأملئ المكان على الحفل بساطة تناسب أعمارنا

وصحبتنا ، فاكثفينا بشراء تورتة ، وأعددنا الشاي ، وأخذ كل منا قطعة ، وفرقنا الباقي بين صاحب المقهى والجرسونات وماسحى الأحذية . وتراعى لنا أن يقول كل واحد كلمة للمناسبة ، فقال صادق صفوان :

— أقول وأنا أستعيد الله من الحسد والحاسدين أن سبعين عاما مرت فلم تند عن أحدنا هفوة تسيء إلى الوفاء من قريب أو بعيد ، ألا فليدم هذا الصفاء وليكن مثلاً للعالمين ..

وقال حمادة الحلواني :

— لو جمعنا الضحكات التي رويها قلوبنا المنهكة بكؤوس الأحداث للمأت بحيرة من المياه العذبة الصافية ..

وقال طاهر عبيد :

— أحقا نحن نحتفل بمرور سبعين عاما على صداقتنا ؟ ، لقد مرت على بلادنا سبعون عاما ، أما صداقتنا فلم يمر عليها سوى دقيقة واحدة ..

وقال إسماعيل قدرى :

— ينطوى التاريخ بما يحمل ويبقى الحب جديدا إلى الأبد ..

وكدت أجنح إلى تذكر عازف الرباب القديم ، ولكن صادق صفوان أيقظنى

من سباتى وهو يتلو بصوت واضح :

— ﴿ والضحى * والليل إذا سجى * ما ودَّعك ربُّك وما قلى * ولآخرة خيرٌ لك من الأولى * ولسوف يُعطيك ربُّك فترضى * ألم يعلم أن يأتى * ووجدك ضالًّا فهدى * ووجدك عائلا فأغنى * فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربِّك فحدث ﴾ ..

(تمت)

رقم الإيداع : ٨٨/٨٦١٨
الترقيم الدولي : ١ — ٠٤٧٢ — ١١ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفيحالة

الثلث ٣٧٥ قرشاً

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه